لؤي عبد الإله

مفكرة بغداد

يوميات العودة
إلى مسقط الرأس

الأعمال الكاملة

7

يوميات

ألف ياء
Alf Yaa

مفكرة بغداد
يوميات العودة
إلى مسقط الرأس

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤلف: لؤي عبد الإله

الكتاب: مفكرة بغداد ـ يوميات العودة إلى مسقط الرأس ـ الأعمال الكاملة 7

صدرت النسخة الرقمية: حزيران/ يونيو 2025

الطبعة الأولى: دار الجندي، دمشق ـ سوريا 1996

- **الناشر: "ألف ياء AlfYaa"**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePubو Mobiو/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**"ألف ياء AlfYaa"**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.

"ألف ياء AlfYaa"ناشرة للكتاب فقط.

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأعمال الكاملة 7

لؤي عبد الاله

مفكرة بغداد

يوميات العودة
إلى مسقط الرأس

يوميات

منشورات «ألف باء» AlfYaa

منشورات «ألف باء AlfYaa»

"كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"

(النفري)

منشورات «ألف باء» AlfYaa

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الفهرست

مقدمة.....9
استهلال.....13
الفصل الأول: إشارات غامضة.....15
الفصل الثاني: العثور على البوصلة.....31
الفصل الثالث: الغليان داخل بوتقة.....51
الفصل الرابع: بغداد: رقة وقسوة مفرطتان.....67
وما زالت الشمس تشرق على بغداد بورتريه بالأبيض والأسود.....89
ملحق: قاموس بغداد الجديد: مصطلحات الحصار والحروب.....105

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مقدمة

منشورات «ألف باء» AlfYaa

هذا الكتاب ينقل ما سجلته خلال زيارتي القصيرة الأولى لبغداد في شهر تشرين الثاني / نوفمبر من عام 2003.

كان قد مر على الغزو الأمريكي- البريطاني للعراق حوالي سبعة أشهر، وخلالها ظلت الأخبار المشوشة تصلني عما كان يجري في أرض الوطن.

بعد نشر أول مقالة في صحيفة الشرق الأوسط من هذه اليوميات الموجزة، اقترح الزميل نوري الجراح نشرها بالكامل عبر مؤسسة ابن بطوطة المعنية بأدب الرحلات.

كان لدي سببان يدفعانني لرفض هذا العرض السخي: صِغَر حجم اليوميات التي اتبعتُ فيها أسلوب تسجيل الدقائق العابرة التي عشتها، بسبب طبيعة تلك الفترة التي تتغير حوادثها بين لحظة وأخرى، وقِصر الفترة التي قضيتها في بغداد حيث لم تتجاوز مدة أسبوعين فقط.

في المقابل، كان هناك سبب واحد يشجعني على نشرها: إنها شهادتي عن لحظة مهمة في تاريخ هذا البلد الذي ظل يعيش نكبات الغزو منذ سقوط بغداد على يد هولاكو عام 1258، ولعل الدافع وراء سفرتي تلك هو مشاهدة التاريخ يسير على قدميه في أحد المفاصل المصيرية التي مر بها العراق. ولعل بغداد هي المرآة التي يمكن أن نرى فيها (ولو بدرجة أقل) ما حدث هناك منذ مغادرتي العراق عام 1976.

"أنت لا تنزل مرتين إلى النهر نفسه"كما يقول الفيلسوف الإغريقي هيراقليطس، ولا أستبعد أن تكون هذه المقولة قد دارت في رأسي حين قررتُ السفر إلى بغداد آنذاك، على الرغم من حوادث السلب والتفجيرات والاختطاف التي أطلقها سقوط النظام السابق، دون كوابح.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

في هذه الطبعة الجديدة أضفتُ ملحقاً لهذا الكتاب الصغير، وهو يعطي نماذج عن المفردات الجديدة التي برزت في العراق بفعل الحروب وقسوة السلطة والعقوبات الاقتصادية.

لعل هذه الشهادة ستضاف إلى شهادات أخرى عن غزو عام 2003 الذي لم يغير مسار العراق وحده بل ترك بصماته، حتى يومنا هذا، على منطقة الشرق الأوسط والعالم أجمع.

لؤي عبد الإله

لندن 30 آب/أغسطس 2021

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

استهلال

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بعد عودتي إلى لندن بأسبوعين قررتُ أن أفتح الدفتر الذي ظل مرافقاً لي أثناء بقائي في بغداد ودمشق. كان السؤال الذي دار في ذهني: هل يمكنني قراءة ما كتبته تحت ظروف وأماكن مختلفة: أحيانا تحت ضوء الشمس أو المصباح وأحيانا تحت ضوء الفانوس. النتيجة هي عبارات شبيهة بالبرقيات تبدو كأنها بدون أواصر عدا عن كونها كُتِبَت في ذلك المكان الذي تركته قبل 26سنة على أمل أن أعود إليه بعد عامين أو ثلاثة. أتذكر آخر شيء من بيت العائلة، سوره الواطئ وبوابته السوداء. وأتذكر أمي وهي ترمي بسطل من الماء ضماناً لعودتي السريعة. وهذا ما حدث بالضبط. لكن البيت بيع أكثر من مرة وأصبحت معالمه مختلفة تماماً عما كان عليه، والأم غادرت عالم الأحياء. استرجع جملة غوته الساحرة: "ما يدور في رؤوسنا أكثر بكثير مما نقوله. وما نقوله أكثر بكثير مما نكتبه."فكيف هي الحال عندما تكون النصوص مفككة مثل هذه اليوميات؟ هناك مصادفة واحدة في سفرتي: مشاركة الصديق الشاعر فاضل السلطاني معي. كلانا خرج في نفس العام: 1977. وبعد سفرة مشتركة صوب دمشق افترقنا هناك: هو اتجه إلى المغرب وأنا اتجهت إلى الجزائر. وها نحن نعود معاً أيضاً على نفس الطريق.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الفصل الأول: إشارات غامضة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

16 تشرين الثاني / نوفمبر

بدأت الرحلة اليوم. كان الصباح مدهشاً في زرقة سمائه وهدوئه. والأشجار نصف العارية تشبعت بطلّ الخريف الذي تمتاز به لندن عن جدارة. وصلت إلى المطار في الساعة الثامنة والثلث لأكتشف، وأنا في الطابور الموصل إلى نقطة تسليم الحقائب، أن موعد السفر هو في الثامنة وخمسين دقيقة. كان ذلك مكتوباً في تذكرة الطائرة نفسها! لم يصل فاضل. اتصلتُ به عبر الهاتف الجوال ولم أحصل على أي جواب. انتابني شعور أنني سأسافر لوحدي، لكنه وصل قبل تسليم الحقائب بأقل من دقيقة. قال ضاحكاً: إنها إشارة أخرى تحذرنا من السفر!

في الطابور كان هناك مزيج من أناس ينتمون إلى شبه القارة الهندية: هنود وباكستانيون وبنغلاديشيون، إضافة إلى عدد كبير من السوريين. وكان ممكناً تمييز انتماءاتهم من لحاهم وملابسهم. البعض كان يخرج زجاجات صغيرة من جيوبهم فيها عطر خاص محلي ليضمخ لحيته الكثة بينما كان البعض يكتفون بتلمسها باصابعهم.

كان وقت صعودنا إلى الطائرة العاشرة والنصف. وبفضل هذا التأخير في وقت الانطلاق تمكنا من السفر.

17 تشرين الثاني / نوفمبر

أثارت المفارقات التي رافقت سفر فاضل قدراً من التطير لدينا معاً. التأجيل المتكرر لبدء الرحلة، ومصادفة اختفاء بطاقته، ثم اكتشاف بطلان تأشيرة الدخول السورية قبل ثلاثة أيام من سفرنا بعد نفاد فترة صلاحيتها القصيرة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

استيقظتُ في دمشق هذا الصباح مبكراً على الشمس الصاخبة. لم أنم أكثر من أربع ساعات، لكن شعوراً بالاكتفاء الوهمي من النوم أيقظني مع تسرب ضوء الصباح إلى الحجرة. استيقظ معي شعور خفي بالخوف، وتساؤل عن مبرر القيام بهذه السفرة الآن على الرغم من حوادث الطريق الناجمة عن محاولات السلب أو تفجير السيارات عن طريق الخطأ، إضافة إلى ما يتردد في الإعلام من تصاعد أعمال المقاومة للاحتلال وما يرافق ذلك من قتل عشوائي للمدنيين.

أعيد قراءة هذه السطور التي نقلتها في دفتري عدة مرات والمقتطفة من "الحرب والسلم"لتولستوي: "الأفراد ليسوا سوى أدوات غير طوعية في التاريخ ينفذون الأهداف المخفية عنهم". أواصل القراءة في مقطع آخر: "تدفع العناية الإلهية هؤلاء الناس، كلا لوحده كي يصلوا إلى غاياتهم الشخصية ولكن هذه الغايات المتفرقة تجتمع مع بعضها البعض كي تحقق غاية جد عظيمة، وتختلف عن كل توقعاتهم، وهذا ينطبق على نابليون والكسندر (قيصر روسيا) والقادة العسكريين الذين خاضوا المعارك".

أعيد كتابة الفقرة الأخيرة ثانية بعد إقحام أسماء أخرى لتصبح هكذا: تدفع العناية الإلهية هؤلاء الناس... وهذا ينطبق على نابليون والكسندر وبوش وصدام وبلير والقادة العسكريين الذين خاضوا الحرب.

أقرأ هذا المقطع المدهش الذي نقلته من استنتاجات تولستوي، وفيها يرى التاريخ كشكل من الميتافيزيقيا: يعيش الإنسان على مستوى الشعور لذاته لكنه على مستوى اللاشعور هو ليس سوى أداة للوصول إلى الغايات التاريخية العامة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

للجنس البشري. ليستنتج في الأخير بأن "التاريخ هو حياة القطيع اللاشعورية للجنس البشري".

* * *

اتصلتُ أمس بمكتب سفريات عراقي كنت قد أخذتُ رقم هاتفه من الصديق مظهر عباس. قال لي مؤكداً قبل توديعه في لندن: "يجب أن يكون السائق موثوقاً به". ولم تثر ملاحظته إلا شعوراً غريباً بالاضطراب، فهذا البلد الذي تركته قبل أكثر من ربع قرن كان مثلاً أعلى للأمن. وعلى الرغم من كل ما سمعته عن التحولات التي طرأت عليه تظل الذاكرة مقاومة للقبول بأي تغيير: هذا هو شرط الحنين. أعطتني نبرة المتحدث على الطرف الآخر من المحادثة الهاتفية انطباعاً بأنه في سن العشرين، بينما منحتني لهجته البغدادية الصرف شعوراً بالطمأنينة. اتفقنا على السفر غداً في الساعة الثالثة والنصف صباحا. سيأتي زميله بسيارة أطلق عليها "الدولفين"ليأخذنا من أمام فندق الشام.

* * *

يخامرني شعور باللامبالاة لدمشق هذه المرة مخالف لما كان يعتورني تجاهها كلما زرتها. فهي قد ظلت الأم البديلة عن بغداد. في ثنايا أزقتها القديمة استحضر عالماً لا بد أنه انقرض تماماً الآن: بغداد القديمة التي قضيتُ أول سبع سنوات من حياتي في حناياها. لم يكن ما يحضر إلى روحي تفاصيل الطفولة التي اختفت تماماً من سطح الشعور بل ذلك الإحساس الغريب بأن روحاً سبقت أن طوَّفت في مكان شبيه بهذا المكان. تناسخ آخر في عصر آخر. لكن ما يثير البهجة في النفس هو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أن دمشق القديمة تتخللها أشجار الكينا بعكس أزقة بغداد القديمة الخالية من أي أثر نباتي. كأنما الماضي يعيد صياغة نفسه بشكل أجمل.

هذا المساء كان شارع "الحمراء"غاصاً بالمشاة الذين بدوا في حالة استرخاء ولم تكن خطواتهم تحمل أي ظلال للخوف. بدا المكان كأنه عائم فوق بركة ضوء تنعكس أشعتها على واجهات الفترينات فتمنح شعورا باندماج غامض مع الحشد المجهول. قلت لفاضل فجأة في لحظة حالمة حقا: ليس مستبعدا أن نتحسر على هذا الشارع غدا.

* * *

هناك شعور دفين بأنني خرجت عن سكة الإرادة الحرة إلى سكة أخرى حددها قراري بالسفر إلى بغداد. سكة يقررها العالم الخارجي: السائق ونوعية سيارته ومدى مهارته وما سيتحكم من مصادفات في الرحلة: إنه عالم شديد المجهولية. يحضرني السؤال مرة أخرى: لمَ السفر الآن وليس بعد ستة أشهر مثلاً. مثلما سألني البعض في لندن: إنه التاريخ الذي أطمح إلى مشاهدته في قلب الفوضى العراقية. إنه السبب الأساسي لقرار رحلتي. بعد ستة أشهر سيكون الوقت متأخرا لمشاهدة التغييرات على أرض الواقع إذ أنها ستصبح نفسها تاريخاً.

* * *

ستكشف الرحلة الذات أكثر مما تكشف الموضوع: الداخل أكثر من الخارج. تحضرني جملة ابن عربي: نحن نسافر بشكل دائري.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

18 تشرين الثاني / نوفمبر

لم نسافر كما توقعنا. بعد انتظارنا للسائق لما يقرب من ساعة وربع عدنا إلى الفندق. كان البرد المنعش يتخلل ذرات الهواء. قضينا الوقت بجانب بائع الشاي المتجول الذي أشعل أخشاب بعض صناديق السلع المرمية للتدفئة. كان يقف مع دراجته وعدّته أمام الفندق الشهير. وقبل مغادرة البائع بدقائق تركنا المكان. في اليوم الثاني اتصلتُ بالمكتب وجاء صوت السائق. لقد جئتُ بالضبط بعد دقيقة واحدة من ذهابكما. قال لي بائع الشاي أنكما كنتما تقفان هناك. لماذا تأخرت؟ سألته. آه لقد نمت أكثر من اللازم... هل آتي لأخذكما؟ وبعد انتظار ساعتين أيقنا أنه لن يأتي.

* * *

اتصلتُ بقريبة صديق آخر تقيم في دمشق. أخبرتني أنها تعرف مكتب سفريات موثوق به، ولم تمض أكثر من ساعة حتى تم الاتفاق: سيأتي السائق غدا صباحا لنقلنا. هذه المرة سنأخذ سيارة صالون من نوع الـ"جي أم سي". حضرت إلى ذهني هذه الفكرة: لا بدّ أنها أسرع وأكثر راحة من الأخرى.

* * *

التقينا بطالب الداوود الذي لم يمض عليه سوى أسبوع منذ عودته من العراق. فهو يقيم في دمشق منذ عام 84. وكنا قد عملنا معاً في الجزائر قبل ذلك ولعدة سنوات. على عكس تفاؤل الأصدقاء الآخرين الذين زاروا العراق منذ التغيير الأخير أبدى الداوود رؤية سوداوية للواقع، لكنها كانت على ما

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أظن أكثر موضوعية: بدلاً من صدام، هناك الآن 10آلاف صدام. بدلا من وجود سلطة دموية بيد شخص واحد هناك سلطات مصغرة بيد آلاف "المستبدين الصغار". ستجد هؤلاء في كل مكان وهم يسعون لفرض إرادتهم على الأغلبية. اِذهب إلى جامعة البصرة ستجد أعضاء بعض الأحزاب الدينية يفرضون بالقوة الحجاب على الطالبات. أصبحت قاعات السينما ومحلات بيع الكحول هدفاً للتفجيرات على يد أفراد متعصبين. أصبح بعض الطلبة الفاشلين قادرين على تحقيق النجاح من خلال ترهيب مدرسيهم. أنا ذهبتُ إلى كركوك ووجدتُ كيف تحتل المليشيات الكردية أي بقعة فارغة في المدينة. كل البنايات احتلتها هذه المليشيات، حتى المساحات الفارغة التي يمتلكها أفراد غير أكراد تم احتلالها وإقامة خيام فيها. وإذا ذهبت إلى مدينة الثورة (التي سماها الرئيس السابق بمدينة صدام) فستجد أنه من غير المسموح لأي طرف سياسي، عدا القوة المهيمنة، بفتح مقر لها. ولن يكون صعباً قتل من يتجرأ ويخالف إرادة تلك الجماعة، وهلم جرا. هل تستطيع القول إننا نعيش حالة حرب أهلية ضمنية؟ سألته. لا. أنا أسمّي الوضع بمرحلة التخندق: هناك خطوط تخندق تفصل الأحزاب بعضها عن بعض: الأكراد ضد الأكراد، الأكراد ضد العرب، الشيعة ضد الشيعة. الأحزاب لا تتحرك إلا وفق منطق المصلحة الذاتية. وهناك دفع باتجاه جعل السنّة العرب مسؤولين عن جرائم صدام... إنه عالم قائم فوق قنبلة موقوتة. الجميع في حالة تنويم مغناطيسي وهم غارقون في نزعة الاستئثار الفردي والحزبي... إنه مشروع لا آفاق له.

كان طالب يفكر في أخذ أسرته والاستقرار في العراق خصوصاً مع وجود حاجة كبيرة لخبراته في مجال الطبع

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والنشر لكنه ألغى الفكرة نهائيا: سيبقى وإلى إشعار آخر في دمشق. سألته: أليس هناك أي شيء ممتع في العراق؟ نعم. ستستمتع كثيراً بالجلسات العائلية. لقد خلق العراقيون وسائل ترفيه كثيرة داخل الإطار العائلي بعد أن أجبِروا خلال أكثر من عشرين عاماً على قضاء أكثر أوقاتهم في بيوتهم.

* * *

توصلنا أنا وفاضل أثناء جلستنا في نادي الصحافيين الضاج بالموسيقى وحركة النادلين بعد مغادرة طالب لنا إلى هذا الاستنتاج: الرحلة لوحدها ستقدم الإجابة عما إذا كنا قد فقدنا الوطن تماماً أو كسبناه ثانية.

19 تشرين الثاني / نوفمبر

الجزيرة: الطريق إلى بغداد. الطريق إلى الطفولة. ليس هناك سوى فراغ يملأ العين: تراب وشوك وسماء صامتة. لا بدّ أن حلب أصبحت وراءنا وأننا نقترب من المدن الحدودية.

الفلاة تمتد منفتحة على السماء: لونان ملتقيان يفصلهما خط سرابي: الأزرق بالبني. معالم الحياة تتقلص إلى رموز فقط. نبتات العاقول تغرز بجذورها في أعماق صحراء ترابية قاحلة كأنها قنافذ خضراء منكفئة على نفسها لإبقاء نسغ الحياة يتسرب إلى أشواكها القاسية، وعصافير ضالة منطلقة في شتى الاتجاهات وسط متاهة لا متناهية.

التقلب بين ضباب فاجأنا في البدء (ضباب توراتي يشير إلى بدء الحياة على الأرض) مروراً بصحو مدهش صامت. عند

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

نقطة الحدود تمضي العصافير في زقزقتها المثيرة للاستغراب. جدران بيضاء ومعابر وحواجز. يذكر طالب الداوود أن عدد المشاركين بالسرقات بعد الحرب كان حوالي مليوني شخص: النسبة تعني أنه من بين كل 5 عراقيين هناك لص واحد فقط، إذا افترضنا أن عدد الراشدين يبلغ 10ملايين فرد وإنهم وحدهم من قام بعمليات النهب، لكن ما الذي ستكون النسبة عليه إذا كان بعض اللصوص تحت سن الرشد؟

عند نقطة تقع على الحدود العراقية برزت لأول مرة مصفحة هُمفي وفوقها جندي أميركي. إنها المرة الأولى التي أتلمس فيها الاحتلال عبر المشاهدة الحقيقية. أشار لنا أميركي ثانٍ بالهبوط من السيارة واقتادنا إلى كشك كان يجلس فيها جندي آخر وأمامه كومبيوتر. دقق في جوازينا وقارن ما فيهما من معلومات مع المعلومات الموجودة على شاشة الكومبيوتر ثم أخذ لكل منا صورة. حضر سؤال بدون كلمات فوق لساني: هل أنا أخطأت البلد. هل حدث حقاً كل ما نقلته شاشات التلفزيون من صور عن العراق.

* * *

نحن في العراق الآن: ها نحن نقطع أكثر من 200 كيلومتر: تمتد أبراج الكهرباء في صف طويل وقد بدت من بعيد كأنها دناصير آلية تقوم بحركات رياضية متكررة، بعضها مُحنٍ جسمه وبعضها مستلقٍ على ظهره وبعضها راكع على الأرض: كان قصف الطائرات وراء هذه الألعاب الرياضية التي أعقبتها أعمال السرقة لنحاس الأسلاك الكهربائية.

تمتد هذه الدناصير الآلية العملاقة أميالاً وأميالاً برؤوسها

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المحنية، وما يصدم العين اختفاء تلك الأسلاك التي تربط بعضها ببعض. إنها جمِّدت هنا شاهدَ عيان وضحية في آن واحد عما جرى لهذا البلد، لكن السماء الساطعة بضيائها الصارخ تظل لا مبالية. يحضرني شعور خارق بالذنب لمغادرتي العراق وترك هذه الأبراج تعاني لوحدها. يأتي إلى ذهني بيت مالك بن الريب أثناء احتضاره في منتصف الطريق قبل وصوله إلى مضاجع عشيرته: "فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه"يسمع فاضل، الجالس جنب السائق، صوتي فيكمل عجز البيت، كأن الشعور تسرب إليه عبر توارد الخواطر: "وليت الغضا ماشى الركاب لياليا".

* * *

عودة العاقول والغنم والماعز، وعودة البدو الرعاة. تحضرني صورة نقلها كتاب "مرايا دمشق" لأولئك المغول الذين قطعوا هذه الصحراء الفاصلة بين العراق وسوريا بعد اكتساحهم سنة 1258 لبغداد. كان الهدف احتلال المدن العريقة الواقعة وراء هذه المساحة الشاسعة الموحشة. لكن معركة "عين جالوت" في فلسطين التي خاضها الجيش المملوكي ضدهم بقيادة "الظاهر بيبرس" أوقفت هذا الغزو إلى الأبد. يقول بعض المؤرخين إن تلك المعركة لم تقرر مصير سوريا ومصر وفلسطين والشمال الأفريقي فقط بل هي قررت مصير أوروبا إذ لو أن المغول انتصروا في تلك المعركة لوصلوا إليها بكل سهولة.

الضحية الكبرى كان العراق. إذ بفضل وجود حاجز الصحراء احتفظت مدن الشام بمدنيتها بعيدا عن القيم العشائرية وبصمات البداوة المتجددة. بعد تدمير هولاكو لنظام الري

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المقام منذ زمن البابليين واستمرار غزو القبائل القادمة من أواسط آسيا للعراق، اندثرت تدريجياً الأراضي الزراعية التي كانت تأوي 30مليون مُزارع لتصبح أراض قاحلة لا تصلح إلا لرعي قطعان ماشية العشائر القادمة من الجزيرة العربية، بالمقابل أبادت الحروب والأوبئة والفيضانات أغلب سكان العراق الأصليين لتحل محلهم قبائل البدو الرُحَّل، وهذه لم تبدأ بالاستقرار إلا في أواخر القرن السابع عشر.

بعد عبورنا النقطة الحدودية اقتادنا السائق إلى أول مطعم عراقي لتناول الفطور. كان المكان واسعاً، مع ذلك بدا كأنه محض كهف. ليس هناك أي صورة على الجدران التي طُليت بلون أزرق باهت. ولم تمس أي بصمة تجميلية المقاعد والطاولات. كأن الفراغ هو مجرد حاوية تتيح للبدو أخذ قسط من الراحة قبل أن تعود أعينهم لملاقاة الامتداد الخالي للصحراء. بعكس ذلك كانت المحلات على الطرف السوري. فعلى الرغم من الفقر البارز عليها هناك بصمات قليلة تجعل المكان أكثر دفئاً واكثر جمالية. لا أستطيع أن أحدد الفروق بالضبط، لكنها موجودة هناك في الهواء. لعل الدفء والجمال هما في نهاية المطاف شيء واحد.

* * *

تكتسي التربة الآن لوناً أحمر باهتاً. هناك برج واحد ظل مقاوماً جاذبية السقوط فبدا كأنه برج بيزا المائل ومن مسافة بعيدة تلبَّس ذلك البرج لوناً رمادياً. هاهي الأبراج تعود إلى الظهور. هذه المرة تبدو أقرب للعين من الأبراج السابقة. وبدت في هذه المرة كأنها تدفع بخراطيمها صوب التراب وباتجاهات مختلفة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يدفع السائق بكاسيت فتأتينا أهازيج الغجر وأغاني الحب والعتاب. "إنها المغنية هجران"يقول السائق. تبدو لي الأبراج وكأنها حُبِست في لحظة زمنية أزلية.

يتحرك قطيع من الخراف والماعز بدون خوف جنب أحد الديناصورات الآلية المستلقية على ظهرها. يضع السائق كاسيتاً آخر لفرقة من المغنين الشباب تحمل اسما طريفاً: "ثلاثي العشاق المعذبين"ولن تتعارض أجواء أغانيهم مع هذا الاسم: هناك المعاناة من الحب والهجران أرضية مشتركة لكل الأغنيات. هل يتحمل العراقيون فعلا أغنية باسمة قليلا؟

فجأة تستقيم الأبراج لتبدأ بالتواصل مع بعضها البعض عبر الأسلاك المتهدلة. هل هي بداية إعادة الإعمار؟ أشك في ذلك. إنها مجرد أبراج لم يتح الوقت الكافي للطيارين واللصوص كي يمضوا في تخريبها مثل غيرها.

يذكر الصديق الداوود أن قاعدة الحبانية الجوية تعرضت لهجوم أبناء العشائر المحيطين بها بعد سقوط بغداد. وهم لم يكتفوا بسرقة المعسكرات بل آجره وأحجاره وسقوفه ثم فككوا الطائرات ليأخذوا منها كل ما يمكن حمله بغضّ النظر عن مدى الاستفادة منه بل حتى البراغي لم تسلم من أيديهم.

* * *

عودة الأبراج المعوجة والمعفرة بالتراب مرة أخرى. هذه المرة، يبرز كل منها في شكل مثلث قائم الزاوية قاعدته الأرض، وهذا يجعل الوصول إلى الأسلاك النحاسية سهلاً. أي أجهزة شيطانية استخدمها اللصوص في تخريبهم لها بعد أن أطاحتها القاذفات الحربية؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

استرجع في ذهني ما قاله البهيلي في المقابلة التي أجرتها الشرق الأوسط معه، وكان فاضل قد نبهني أثناء رحلتنا بالطائرة إلى تلك الفكرة التنويرية التي جاءت على لسان المفكر السعودي: إن الحضارة في العراق هي الأصل خلال قرون طويلة أما البداوة فهي العدوان المتكرر على هذا الأصل تصرفه عن مساره وتعوقه عن انتظام سيره.

على الرغم من قحل الأرض بدأت تبرز قطعان الماعز والخراف بشكل أكبر. هناك رجل بعيد على ظهر حمار يشكل لوحة وهمية مندمجة في الأفق المعفر بالغبار وضوء الشمس.

هناك آثار لغيوم دخانية معلقة في الفضاء تتقدم ببطء صوب الغرب. وفوق رؤسنا تظهر غيوم خفيفة لا تعد بأي حال بالمطر، تظهر في هيئة مجرات طولانية بيضاء نائية عن سطح الأرض.

فجأة اختفت الأبراج من أمامنا. الوقت الواحدة والنصف. من بعيد تبرز خيام البدو وإلى جوارها جثمت شاحنات. تمر من فوق رؤوسنا غيوم شفيفة لا تحمل في طياتها أي قطرة ماء. أفتح كتاب اليوت: "الأرض اليباب" القصيدة الشهيرة التي ترجمها عبد الواحد لؤلؤة لهذه المناسبة:

من هذه النفايات المتحجرة؟ يا بن آدم
أنت لا تقدر أن تقول أو تحزر، لأنك لا تعرف غير
كومة من الصور المهشمة، حيث الشمس تضرب
والشجرة الميتة لا تعطي حماية، ولا الجندب راحة،
ولا الحجر اليابس صوت ماء. ليس
غير الظل تحت هذه الصخرة الحمراء.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هل كان إليوت عراقياً؟ تتخذ الأبراج هذه المرة شكل علامات استفهام لا روابط تجمعها. أتابع حديث فاضل مع السائق: أي شيء أفضل من الاحتلال، قال الأخير. وما رأيك بالمقابر الجماعية؟ سأل فاضل. لا يهم. طالما أن صدام عراقي. سألته: هل خدمتَ في الجيش؟ نعم، كنت أؤدي الخدمة الإجبارية حينما وقعت الحرب. لكنني ذهبت إلى مدينتي ألقوش قبل أن تنتهي. الحمد لله أننا تخلصنا من الحروب. أعطاني جواز سفره. كان اسمه مطابقا لما أعلن عنه: منتصر حنا. مواليد 1981. لا بدّ أن الاسم الأول يوحي برغبة الأب في منح ابنه بطاقة الاندماج مع النظام الذي راح يفرض قيمه المتغطرسة بعد تفجيره للحرب مع إيران سنة 1980. منتصر: إنه اسم معبّر، قلت له، تعبيرا عن الإعجاب به...

فجأة تبدلت لهجة السائق في حديثه مع فاضل إذ راح يعدد حسنات التخلص من النظام السابق: الناس أحرار الآن يفعلون ما يشاؤون. حياتهم ملك لهم.

* * *

أخيراً تبرز أشجار النخل. لا بد أنها مشارف مدينة الأنبار. يتغير المشهد فجأة: وادي الرافدين أخيراً... تبدأ الخضرة بالتسلل بحياء فوق الأرض. الشوك يتلبس الخضرة. خيام البدو منتشرة في الأفق. بغداد تقترب أكثر فأكثر واللهفة تزداد للالتقاء بالمدينة التي خلفتها ورائي قبل 26سنة. يثير انتباهي طابور من المصفحات الأميركية يتحرك في الاتجاه المعاكس. ألتفتُ ثانية يساراً صوب الأفق البعيد. يبرز مشهد غريب: سيارة مرسيدس لونها ذهبي تسعى إلى تجاوزنا لكنها بدلا من الاندفاع تظل متوازية مع سيارتنا. أدقق النظر في الأشخاص

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الموجودين داخل السيارة المجاورة لي. هناك واحد يجلس في جنب السائق وثالث في المؤخرة. ومن النافذة الخلفية نصف المفتوحة ظهرت يده وهي تقبض على كتلة سوداء مصوبة نحوي: أدركت أنه مسدس. استمر الراكب الجالس في المقدمة يحرك ذراعه طالباً منا التوقف. ارتدى الخوف وجه سائقنا فقلل سرعة سيارته مما أجبر المرسيدس إلى تقليل سرعتها الجهنمية لتصبح وراءنا، آنذاك انطلق منتصر بأقصى ما يستطيعه متحدياً دعوة المطاردين بالتوقف. ولم يتطلب الأمر سوى دقيقتين حتى عاد الثلاثة بكل سهولة إلى موقعهم السابق، مثل ذباب الصيف اللجوج. آنذاك التفت يساراً فواجهتني هذه المرة بندقية كلاشينكوف مسلَّطة تجاهي. حضرتني فكرة أن اضطجع على المقعد تجنباً للرصاص، لكنني بقيت أشبه بمتفرج يتابع فيلما بوليسيا مملاً ظلت هوليوود تكرر إنتاجه.

في هذه المرة تجاوزتنا السيارة الأخرى وراح الشخص الجالس في المقدمة يلوّح بإلحاح لسائقنا للتوقف. اضطر الأخير إلى الانصياع إلى أمر الآخر. لكنه حاول مرة أخرى أن ينطلق في سيارته. أطلق الشخص الجالس في مؤخرة المارسيدس، والذي أصبح نصف جسده بارزا إلى الخارج بعد فتحه باب السيارة اليمنى، رصاصة واحدة. بدت لي شرارة النار وكأنها أصابت عجلة الـ "جي أم سي" التي تقلنا. طالبنا السائق بالتوقف. ولم تمض سوى ثوان حتى نزل الشخصان صوبنا يحمل أحدهما مسدساً والآخر بندقية ليصبحا فوق رؤوسنا. كان ذهني يسير كأنه في كابوس لا يمت بصلة بالواقع بل صلته بحقيقة افتراضية شاركتُ في تكوينها منذ لحظة قراري بالقيام بزيارة بغداد. لقد ظل الكابوس يتكرر لسنوات وفيه أرى نفسي راجعاً إلى بلدي، ثم بعد وقت ممتع لي هناك يتكهرب المناخ

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لأجد نفسي محاطاً برجال الأمن. لكن الكابوس يعود الآن على أرض الواقع على الرغم من اختفاء رجال الأمن.

قال أحدهما بنبرة حادة: من أين أنتما؟ نحن عراقيان أجابه فاضل. وبعد أن سحب صاحب المسدس ظرفا من حقيبتي الصغيرة فيه مبلغ صغير من الدولارات صاح شاتماً السائق: كيف لا تقف؟ وبأخمص مسدسه ضرب قذال رأسه. انتابني خوف على ذلك الشاب الذي سحب قاطع الطريق الآخر من تحت قدميه ما كسبه من عمله.

لا بد أنه الخوف من عودة الدورية الاميركية وراء تسرعهما بإنهاء عملية السطو بأقصر وقت ممكن. وحينما اختفت المرسيدس عن الأنظار تنفسنا الصعداء: كان خوفي الأساسي هو فقدان جواز السفر وما سيترتب عنه من مصاعب بيروقراطية للعودة بنفس الطريق إلى لندن. لكن هناك خوفاً غريزياً آخر ظل ملتصقاً بأنفاسي، ويرفض أن يعبّر عن نفسه: ما الذي كان يمنعهم من قتلنا طالما أننا أصبحنا تحت رحمتهم إلى هذا الحد وفي هذا المكان الموحش؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الفصل الثاني: العثور على البوصلة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

9 تشرين الثاني / نوفمبر

ها نحن أخيراً في بغداد. السماء ارتدت زرقة عميقة. إنه الغروب. لا بدّ أن موعد الإفطار على وشك الحلول. لم نكن بحاجة إلى اختراق مركز المدينة. وفاء تسكن في السيدية. وعند مغادرتي بغداد كانت هذه المنطقة مجرد بساتين وأراض زراعية تفصل بين الحلة وبغداد.

قالت أختي لحظة اللقاء: إنه حلم. إلى جانب زوجها حمودي كان هناك خمسة غرباء بانتظاري أعرفهم من بعض الصور التي كانت تصلني من وقت إلى آخر بعد عام 1991. أكبرهم نوّار الذي ولِد بعد مغادرتي بغداد بعامين. تليه ثلاث فتيات : نورس ومنار وميس، ثم مصطفى الذي بلغ الثانية عشرة. لا بدّ أن شعوري بعد أن توقفت السيارة أمام بيتهم شبيهة بمشاعر العازر عند عودته المستحيلة إلى أهله. الفرق الوحيد أنني وجدتُ آخرين بانتظاري ولِدوا في فترة غيابي. في ذلك الوقت القصير الذي بدا لي دهراً كانت ذاكرتي تحاول العثور على خيط تتشبث به من الماضي المشكوك بحقيقته: عبر الغضون التي علت وجهي وفاء وحمودي بقيت أسعى لإيقاظ صورتيهما القديمتين: شابين أكملا تواً دراستهما الجامعية بطموحات علمية كبيرة. لم تثر في النفس سوى تلك الألفة التي يشعر بها المرء أحياناً حين يمر ببعض الأماكن المجهولية فيشعر كأنه عاش فيها يوماً ضمن تناسخ روحي آخر. بالعكس من ذلك كانت الذاكرة آنذاك جهازاً معطوباً تماماً.

* * *

قبل الذهاب إلى الغرفة التي أعِدّت لنا بدأت الشكوك تتسرب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

إلينا تجاه السائق. قال فاضل إن مبادرته السريعة لسحب نقود كانت موضوعة على حافة واجهة السيارة الأمامية ووضعها تحت قدميه مثيرة للشكوك. أو لماذا لم ينزل من السيارة للتأكد من عدم إصابتها برصاصة. في الوقت نفسه كانت هناك الاحتمالات المعاكسة قوية أيضا: لماذا لم يتوقف السائق مباشرة طالما أن المسألة متفق عليها؟ ثم هل كان من الضروري إطلاق النار الذي قد يثير الانتباه ضدهم، خصوصاً مع وجود دورية أميركية غير بعيدة عن الحادث.

* * *

الساعة الآن الخامسة والربع صباحاً: استيقظتُ بعد ساعتين من النوم تحت وطأة احساس كاذب بأنني نمتُ يوماً بأكمله. أمس، وبعد حلول الليل تماماً بدأت أصوات انفجارات تناءت إلى سمعي كأنها ضربات مطرقة عملاقة فوق سطح خشبي سميك يرافقها أزيز طائرات الهليكوبتر من وقت إلى آخر. لا بد أن حمودي قرأ الدهشة فوق وجهينا أنا وفاضل. إنها جزء من حملة لتنظيف منطقة الدورة من "المخربين". متى بدأت هذه العمليات؟ سألتُه. منذ ثلاثة أيام بعد تصاعد عمليات التفجير في الأسبوعين الأخيرين.

20 تشرين الثاني / نوفمبر

اليوم رافقتُ فاضل إلى "سدة الهندية" بسيارة قريب يعمل سائقاً. كان علينا أن نخرج مبكرين كي نضمن العودة قبل حلول الليل. قال حمودي أنتم لا تحتاجون إلى أكثر من 40دقيقة للوصول إلى تلك المنطقة. أخذنا طريق الخط السريع

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الذي بني بعد مغادرتي العراق. كان الطقس ساحراً حقاً. سماء زرقاء كالبلور لا علاقة لها بتلك السماء المتجهمة عند قدوم العواصف الترابية، حين يصبح الفضاء مكتسياً لوناً أحمر طينياً والهواء مشبعاً بمسحوق ترابي خانق. على العكس من ذلك كان الهواء عذباً، والشمس التي تصهر الإسفلت فوق الشوارع في الصيف تلبست قناعاً مخادعاً جعلتنا نشعر بالألفة الكاملة مع المحيط. ها هي بساتين النخل تطل وسط كتل الضوء المتهادية لتخلق ظلالًا سميكة تتعارض معها. ولعل كثافة الظلال والخضرة التي تعتلي رؤوس النخل وراء تلك التسمية التي عُرِف فيها العراق قبل أن يتشكل كياناً سياسياً سنة 1921: أرض السواد. لا يقتصر التطرف على المناخ فحسب بل على قفا ووجه العراق: صحراء الجزيرة القاسية التي انعكست آثارها على سمات أبنائها، ووادي الرافدين: تلك الأرض التي تجاور النهرين عند اقترابهما من بعضهما البعض. الآن حتى بغياب مشهد النهر فإن من الممكن تلمسه في كل مكان: في أسراب الطيور المارة فوق رؤوسنا، في رائحة التربة المخضلة بمياهه، في القرى والبلدات التي سكنت إلى جواره منذ آلاف السنوات. بل حتى مع انقراض فئات واسعة من السكان هنا ومجيء أقوام جديدة فإن دجلة والفرات ظلا ينقلان بإخلاص جينات الأسلاف الذين عاشوا بجوارهما إلى المهاجرين الجدد ولن تمضي سوى عدة قرون حتى تتم صياغتهم وفق مشيئة هذين النهرين نفسيهما.

استغرقت الرحلة أكثر من ساعة. خصوصاً مع قِدم سيارتنا التي بدا مظهرها أثرياً في طريق الخط السريع وما فيها من سيارات جديدة تندفع بسرع مثيرة للدهشة. كان علينا أن نسأل عند كل منعطف ونقطة تقاطع: "كيف نصل إلى سدة الهندية؟".

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حينما توقفنا بجانب ذلك الكهل الحزين المعتمر دشداشة سوداء ولحية بيضاء لنسأله عن الطريق لم يتبادر في ذهني أننا قد وصلنا حقاً إلى بيت فاضل. تَلَفَّتَ سائلاً: أي بيت تريدون أن تذهبوا إليه؟ ولم تمض سوى ثوان حتى توجه إلى مؤخرة السيارة ليسأل المغترب القديم: ألم تعرفني؟ أنا صديقك في المدرسة.

أراد فاضل أن يصل إلى بيته بدون توجيه الآخر: دعني لوحدي اكتشف الطريق.

بدأت السيارة بالتباطؤ أكثر فأكثر كلما أوغلنا في الشوارع الفرعية تحت تأثير الحفر واختفاء الإسفلت عنها شيئاً فشيئاً ليحل محلها الطين. بدت البيوت على امتداد تلك الطرقات الموحلة كأنها موشكة على الانهيار. جاء صوت فاضل متفجعاً: ما الذي حدث لهذه المدينة. فسدة الهندية كانت موقعاً جميلاً للرحلات المدرسية القادمة من كل مدن وسط العراق. قال الآخر للسائق قبل تجاوزه للفرع اللاحق: استدرْ يساراً. كأن ذاكرة فاضل انكمشت على نفسها وهي تراقب المشهد الفجائعي: تحول محيط الطفولة والمراهقة إلى أنقاض. إنه رفض لا شعوري قاطع للحاضر.

في كتاب "ما قبل الفلسفة" يُجري المؤلف مقارنة بين حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل عبر فرضية فنتازية: لو عاد إلى الحياة شخص مصري قديم فإنه لن يستغرب لبقاء الأهرام ومعالم حضارته على حالها، فالطبيعة قد اعتنت بها كثيراً. الفيضان السنوي للنيل هو لصالح الأرض ولا يسبب وراءه أي خراب. أما الشمس فهي طوال السنة أم رؤوم بحيث لا تهبط درجات الحرارة كثيراً ولا تتجاوز الثلاثين مئوي في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الظل. كذلك فإن الكتلة البشرية الكبيرة في وادي مصر غير محاطة بكيانات بشرية ضخمة تهدد وجودها من وقت إلى آخر. كذلك هي الحال لو أن عراقياً قديماً أعيد إلى الحياة فإنه لن يستغرب لاختفاء كل معالم حضارته، فقد اعتاد على الخراب الذي كانت تلحقه الفيضانات المنتظمة بها ناهيك عن الدمار الذي كان يلحق بمدنه المستقلة كلما غزتها أقوام، كانت تأتي من بلاد فارس وأواسط آسيا. لعل هذا السبب وراء الحزن الذي توارثه العراقيون عن أسلافهم القدامى والمتجسد بفجيعة الفقدان. أُقلِّبُ في ملحمة جلجامش التي ترجمها فراس السواح وأقف عند هذه الابيات:

هل نشيد بيوتاً لا يدركها الفناء؟ وهل نعقد ميثاقاً

لا يصيبه البلى؟

هل يبقى ميراث الأخوة قائماً؟

وهل ينزرع الحقد في الأرض دواماً؟

هل يرتفع النهر ويأتي بالفيض أبداً؟

وهل بصافح وجهنا نور الشمس على الدوام؟

فمنذ الأزل لا تثبت الأمور على حال

وما أشبه النائم بالميت

كلاهما يفشي صورة الموت.

21 تشرين الثاني / نوفمبر

مرت الأيام الثلاثة الأخيرة بسرعة خارقة. الشيء الذي تعمق في داخلي هو أن بغداد مدينة غريبة عني تماماً، لم أشعر

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بهذه الدرجة من فقدان الاتجاهات في أي مكان سابق مثلما هي الحال هنا. طُرح في ذهني سؤال غريب: هل نحن مزودون ببوصلة تحركنا انطلاقاً من موقع طفولتنا؟ لكن هذه البوصلة تتعطل حينما نعيش بعيداً عن ذلك الموقع. البوصلة التي أعنيها مختلفة عن البوصلة المعدنية التي تحمل الاتجاهات الأربعة. إنه ذلك السؤال الملح الذي يحضر من وقت إلى آخر بدون كلمات: أين أنا. أو حينما تستيقظ من نومك أحياناً بدون أن تعرف موقعك. على ضوء ذلك يمكن تقسيم الناس إلى مجموعتين، الأولى تضم أولئك الذين تحكمت فيهم بوصلاتهم إلى حد منعتهم من مغادرة المدينة التي عاشوا فيها حتى مع وجود مخاطر مستمرة على حياتهم. أمثلة على ذلك: محمود البريكان ومحمد خضير وعبد الرحمن الطهمازي ، أما الثانية فتشمل كل أولئك الذين تحرروا من سطوة البوصلة فيهم وتمكنوا من السفر بعيداً.

ما يميز الجزء الجديد من بغداد الذي تنامى خلال الخمسة وعشرين سنة الأخيرة تجزؤه إلى مناطق منفصلة عن بعضها شبيهة بمضارب البدو، حيث تحتل كل عشيرة مضرباً: حي شهداء السيدية، العامرية، الخضراء وهلم جرا. كأنها اتسعت من مناطق كانت تعدّ حديثة في بغداد مثل المنصور لتلتقي بمناطق راقية في ضفة الرصافة مثل الكرادة والمسبح. ترتبط كل هذه المناطق الحديثة ببعضها عبر شبكة طرق الخط السريع وبواسطة جسور برية معلقة وأخرى تمتد فوق دجلة جاعلة التنقل بين الضفتين أسهل بكثير مما كان سابقاً. كل ذلك جعل بغداد التي أعرفها نائية عني فأنا لحد الآن لم أصل إليها. أنا اتحرك فوق رمال متحركة: المدينة السابقة قد جرفتها مدينة أخرى... وأنا أبحث عن أجزاء منها تظل هي نفسها تتخفى عن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأعين.

* * *

كانت أسواق الكرادة غاصة بالناس. كان الوقت قبل الإفطار بساعتين، تنتمي وجوه الكثيرين من أصحاب المحلات إلى أبناء مدينة الثورة (التي سميت في العهد السابق بمدينة صدام)، وكم هو مفرح أن يجد المرء بغداد وقد امتصت جزءاً من أبنائها ذوي الأصول الريفية- العشائرية الذين ظلوا مهمشين عنها ليدخلوا ضمن طبقتها المتوسطة. في شارع الكرادة التجاري تمتد المحلات الخاصة بالملابس ومجمعات الأسواق الحديثة، وما يبعث على الدهشة عدد باعة الأرصفة الذين فرشوا الأرض بسلعهم مما كان على المارة أن ينزلوا أحيانا إلى الشارع للتمكن من شق طريقهم.

لكن الناس كانوا يتحركون باسترخاء واضح. كان هناك عدد قليل من الفتيات يمشين بدون حجاب. رفضت نورس كبرى بنات وفاء تنفيذ طلب أخيها البكر نوار بوضع غطاء فوق رأسها. بل هبطت هي واختها الصغرى ميس بالجينز. كان السوق ينبض بحيوية متدفقة. العيد على الأبواب. سيكون العيد الاول الذي يعيشه البغداديون بدون نظام صدام. وعلى عكس ما تطرحه الفضائيات من مناخ سوداوي عن بغداد بدت حشود الناس فرحة ومستغرقة في الشراء وخالية من المخاوف. وإذا كانت الصحف اليسارية البريطانية مثل الغارديان والاندبندنت تسمي التفجيرات بأعمال المقاومة فإن الكثيرين ممن التقيتهم لا يعرفون عن أخبار العمليات المسلحة إلا عن طريق الفضائيات العربية. ولا يعتبرونها سوى عمليات تخريب. من الواضح أن الهدف منها هو ترهيب الناس وتخويفهم وكسر قدرتهم على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

التحمل: الكهرباء راحت تنقطع كل ساعتين. كانت هدية أبطال المقاومة للسكان المدنيين بعد خطاب الرئيس السابق تخريب خط أنابيب النفط المغذي لمحطة الكهرباء الرئيسية. مع ذلك لم تُكسَر روح المسرة لدى الناس. خلال وقت غياب الكهرباء يستخدم معظم أهالي بغداد المولدات سواء بشكل فردي أو عبر اشتراك عدد من الجيران في جهاز واحد.

* * *

بقيتُ حتى الساعة الخامسة في مناقشات متواصلة مع نورس. هي في الواحدة والعشرين وتدرس في كلية الهندسة. أسئلة لا متناهية: هي تصلي وتصوم وترفض في الوقت نفسه منطق المتزمتين تماماً. لماذا يريد عمي أن أتحجب في الوقت الذي ليس هناك أي شيء يدل على أنه موجود في القرآن. أليس ما أقوم به هو الأهم. لماذا لا يهتمون بسلوكي بدلاً من الاهتمام بالتوافه.

سألتُ نورس عن الجامعات في بغداد، فيما إذا كان هناك من لحقه الأذى من الأساتذة. "لم يُقتل سوى ثلاثة أساتذة" وهناك آخرون ذهبوا إلى الأردن.

في فترة الحرب غادرت أسرة حمودي منطقة السيدية التي كانت على الطريق الذي تقدم الأميركيون منه صوب بغداد ودارت فيها معارك عديدة. أقاموا فترة في منطقة العطيفية وسط العاصمة لكن انتقال حدة القصف إلى تلك المناطق اضطرهم إلى التحرك خارج العاصمة باتجاه بعقوبة. آنذاك خرج الملايين من سكان بغداد ليقيموا فوق أرصفة الطريق الواصل إلى بعقوبة حتى سقوط بغداد.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

22 تشرين الثاني / نوفمبر

الالتقاء بـ "أبو ظفار". شعر أشيب وقامة طويلة ممشوقة، توحي ملامح وجهه على خلاف ذلك بتقدم غير حقيقي في السن. كان الصديق الرسام كاظم الخليفة قد أعطاني هاتفه وشجعني على التعرف به. بعد الاتصال به أمس من بدالة في الكرادة، أعطاني تفاصيل المكان الذي سنلتقي فيه. أمام الباب الخارجي للمبنى كانت هناك أسلاك شائكة وصفّ من الأحجار لمنع عبور السيارات في هذا الفرع المغلق إضافة إلى ثلاثة حراس مدنيين يعلقون على أكتافهم بنادق كلاشينكوف وعلى الجدار الأمامي كُتبت لافتة صغيرة: الاتحاد الديمقراطي العراقي. عرّفني "أبو ظفار" بهذا التنظيم السياسي: إنه إطار يضم عددا من المنظمات الديمقراطية وهناك حوارات متواصلة لضم تشكيلات ديمقراطية أخرى له. قال إنه نائب الأمين العام للاتحاد، وهو يرأس تحرير صحيفة أسبوعية تعبر عن صوته: "القاسم المشترك". ما هو هدفكم؟ سألته. نريد توحيد كل القوى الديمقراطية في العراق. وماذا عن التنظيمات الديمقراطية الممثلة في مجلس الحكم الديمقراطي؟ لدينا علاقة جيدة بها ونحن نلتقي بانتظام بممثليهم. حضرني سؤال لم أنطق به: كم سنة ستستغرق عملية التوحيد؟ لكنني بدلاً من ذلك سألته عن الصعوبات التي تواجههم. قال "أبو ظفار" بنبرة قلقة: هناك مشكلة بارزة: التنظيمات تعاني من اندساس بقايا حزب البعث وهذا ما يجعلها تعيش ضمن إجراءات أمنية صارمة. قدم لي العدد الأخير من صحيفة "القاسم المشترك". ثم أضاف: يتضمن هذا العدد مقابلة مع الأمين العام للاتحاد الديمقراطي. وحينما

منشورات «ألف باء AlfYaa»

فتحتها فاجأتني الصورة أكثر من أي شيء آخر: إنه الصديق كامل مدحت الذي لم أره منذ عام 77. بلغتني أخبار عن صدور حكم بالإعدام ضده في فترة الثمانينات لكن عفواً لاحقا شمله في آخر لحظة. سألتُ "أبو ظفار" إن كان ممكناً اللقاء بكامل. من المحتمل أن يأتي اليوم. نحن لدينا اجتماع في الساعة الحادية عشرة.

* * *

كنت جالساً في ركن الصالة الطويلة النائي حينما دخل الصديق كامل مدحت. اتجه صوب الطاولة التي تحلق حولها عدد من المجتمعين. سمعتُ أبو ظفار يقول له: "هناك صديق قديم بانتظارك". وحينما استدار صوبي كان ضوء الشمس المتسرب من النافذة يمنعه من تعرف ملامحي بينما بدا لي من موقعه المعتم أكثر وضوحاً.

* * *

في اللقاء بأول الأصدقاء الذين تركتهم ورائي، استيقظ الماضي الذي ظل يجوس كشبح مشكوك في حقيقته وسط دوامة أحلامي. فمع الحاضر المقطوع بحدة عن الماضي تصاب الذاكرة بالضمور التدريجي حتى يتسرب الشك بحقيقة أولئك الأفراد الذين شاركوا في صياغة رؤيتنا ووعينا. كامل هو واحد من الأصدقاء القلائل الذي جمعتني بهم عشرات الكتب التي تبادلناها ومئات الحوارات وعاطفة الصداقة الحقة. وحينما احتضن أحدنا الآخر كان كل منا يحاول اختزال فاصلة زمنية كبيرة بيننا بثوان قليلة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لم يتغير كامل كثيراً: فروح الدعابة اللاذعة التي كان جميع الأصدقاء يسعون إلى تجنبها لم تستطع أصابع النظام السابق أن تفت من عضدها. ها أنذا أسمع ضحكته الماكرة والمتفائلة في آن واحد، مقللة من شأن كل المصائب، حتى حينما يحل السرطان في جسده. سمعت قبل وصولي إلى بغداد أنه أصيب بسرطان القولون لكنه تشافى تماماً. لم تظهر آثار الزمن على وجه كامل، بل بدا كأنه ظل متابعاً قراءاته ورؤاه. في بداية السبعينات تعمقت صداقتنا. كنت قد أكملت توا دراستي الجامعية، وفي شارع يغلي بالأفكار كانت لقاءاتنا مع أصدقاء مشتركين أقرب إلى جلسات إغريقية تدور فيها نقاشات مفتوحة حول أحدث التيارات الثقافية والفنية. ولا تنتهي حتى ساعة متأخرة من كل ليلة خميس. كانت القراءة بالنسبة لي آنذاك حواراً مع الذات ومع الآخرين، وكم كنت محظوظاً لوجود صديق سبقني إلى الدخول في متاهة المعرفة بعدة سنين بفضل تقدمه قليلاً علي في السن. ما ظل كامل مدحت يتمتع به هو قدرته النقدية المدهشة: الكشف عن الخلل في أي منظومة بطريقة جراح ماهر.

* * *

لا بدّ أن تغيراً كبيراً طرأ على الحساسية السياسية كي يتم اختيار كامل مدحت أميناً عاماً لمجموعة من التنظيمات الديمقراطية. فشخص مثله لا يتحلى بزيف السياسيين غير مقبول بين أقرانه. على السياسي المحترف أن ينقل صورة وردية عن الواقع حتى يستطيع الاستمرار في عمله. إنه يرفض النظر إلى المرآة بل يفضل الصورة التي نجح في تكوينها عن نفسه بأذهان رفاقه وأنصاره. كل ذلك لا ينطبق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

على كامل مدحت. سمعته يتحدث مع "أبو ظفار" عن المقابلة الصحافية: يجب تقديمي كمتحدث رسمي للاتحاد فقط.

بعد الاستفسار عن سبب محاكمته. حاول كامل أن يختصر حكايته إلى أقصى ما يمكن ماسحاً كل تلك التفاصيل "الرهيبة" عنها. لعل وراء ذلك كبرياء عتيد يتجنب الوقوع في مصيدة "كسب الشفقة" بأي شكل من الأشكال: جرى اعتقال كامل مدحت عام 85. كان آنذاك يلتقي بصديقين ومعهما كان يتبادل الملاحظات عما يمكن القيام به بالنسبة للمثقفين لإيقاف مجزرة الحرب الجارية آنذاك بين العراق وإيران، لكن القبض على شخص يحمل معه هذه الملاحظات كان كافياً لإلقاء القبض عليهم وتحويلهم بعد سلسلة طويلة من التعذيب والتحقيق إلى محكمة خاصة. كان هناك طابور طويل يسير ببطء صوب صالة كبيرة. ومن كان لا يعود من حيث دخل فذلك يعني أنه أخِذ من باب يقع في الطرف الآخر للصالة لتنفيذ حكم الإعدام به في سجن أبو غريب، أما من يعود بنفس خط ذهابه فيكون قد صدر حكم بالمؤبد ضده. فالأحكام كانت مقصورة على هاتين العقوبتين فقط، ووسط وجبات المتهمين التي تضم إسلاميين وأكراد وشيوعيين كانوا هم الثلاثة الوحيدين الذين لم تكن لهم روابط بأي تنظيم سياسي محظور. كان البعض منهم معرضا للضرب على يد رجال الأمن قبل إيصالهم إلى وسط الصالة. حكم على كامل وصديقيه بالمؤبد ولعل ذلك يعود إلى غياب أي دليل مادي يثبت صلة أي منهم بالحزب الشيوعي وبعد قضاء عام في السجن، وتحت تأثير احتجاجات منظمات حقوق الإنسان العالمية والحاجة إلى الحصول على السلاح السوفيتي آنذاك، أطلِق سراح مجموعة من السجناء بضمنهم هؤلاء الثلاثة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

23 تشرين الثاني / نوفمبر

وقع ليلة أمس في منطقة العامرية انفجار وصلني صداه ضربة واحدة مزلزلة. كان الوقت حوالي الثانية عشرة. وفي اليوم اللاحق اتضح أنها عبوة فُجِّرت بمصفحة، ولم يُقتل أي شخص.

* * *

السيارات في الشوارع نوعان: تلك المغرقة في قدمها وتبدو كأنها مصابة بالجدري وعلى وشك أن تتفكك إلى أجزائها الأولية المتآكلة وتلك الجديدة المغرقة في فخامتها. يشير قريبي السائق "فلاح" بنبرة حاسدة كلما شاهد واحدة من المجموعة الثانية: هذه من الحواسم. (السلع التي سرقت بعد انتهاء الحرب).

* * *

مرة أخرى في مقر الاتحاد الديمقراطي العراقي للالتقاء بكامل مدحت لكنه لم يأت. ليس ممكنا معرفة السبب مع انقطاع الهواتف وصعوبة التنقل. كان علي أن انتظر مجيء السائق القريب لإعادتي إلى بيت وفاء.

في صالة الاستقبال يأتي أناس مختلفون، بعضهم زوار وبعضهم من المعنيين بنشاطات الاتحاد. التقيت بشخص يدعى إبراهيم وعرّف نفسه بأنه رئيس "رابطة ضحايا الإرهاب". حدثني عن علي عبد الله عبود الذي كان عمره 18 سنة عندما قُتل. أراني صورته وهو من حي الأمين في بغداد. حسب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قوله، كان هذا الشاب الوحيد في العراق الذي كتب "لا"في قسيمة التصويت الذي جرى يوم 15 أكتوبر 2002 لتجديد انتخاب الرئيس السابق الذي حصل آنذاك رقما قياسيا بلغ 100%. وقُتل بواسطة شخصين من المنظمة الحزبية بعد اقتياده إلى مقرها. أُستخدِمت أعقاب البنادق في قتله.

* * *

اللقاء بالفريق الركن المتقاعد نوري حسين اسماعيل الذي انقطع راتبه الآن. كان واحداً من الضباط المتقاعدين الذين شاركوا في تدريب المدنيين ضمن برنامج أطلق عليه "يوم النخوة". وبعد تحول هذه المبادرة إلى مؤسسة إدارية اسمها "دائرة النخوة"ارتفع راتبه التقاعدي من ثلاثة آلاف دينار (دولار ونصف الدولار) إلى 60 ألف دينار. فريق ركن بتقاعد كهذا في أغنى بلد في العالم! كان مظهر الفريق اسماعيل أنيقاً ببدلته على الرغم من قدمها الواضح ولعله ما زال يمارس الرياضة إذ بدت بنيته متماسكة. هل يعمل سائقاً الآن؟ على الأكثر. لكنني لم أسأله. حدثني عن فقدانه لابن ضابط أثناء الحرب ضد إيران وهو لا يعلم لحد الآن إن كان قد قُتل أو أسِر لكنه يرجح الاحتمال الأول. لم يكن في كل ما ذكره أي مسعى لكسب التعاطف. كان أمامي رمزاً لذلك المزيج من الكبرياء والتواضع الذي سلّم بقدره وقدر المؤسسة التي قدم افضل سنوات حياته لها: الجيش، أولاً عن طريق مصادرتها على يد مجموعة من الأميين القتلة جاءوا من قرية على حدود الصحراء الغربية كانت مجهولة من الجميع حتى وقوع انقلاب 68: العوجة. وثانيا عن طريق حلها على يد بريمر بدون التفكير بحجم الخبرات التي تزخر بها أو بمساعي الكثير من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ضباطها للتخلص من صدام وما ترتب عليه من سلسلة إعدامات كثيرة بينهم.

* * *

التقيت بـ "أبو عبير"الذي يحتل جزءاً من مبنى "اتحاد الديمقراطيين"مع أسرته وهو رئيس احدى المنظمات المشاركة في الاتحاد الديمقراطي. كنت اشعر بالحرج لتأخر السائق في الوصول. ولا بد أنه شعر بذلك. "ما رأيك بقدح آخر من الشاي"؟ "فكرة ممتازة"أجبته وأنا أراقب ساعتي. خصوصاً مع اختفاء الكهرباء وحلول ضوء فانوسين محلها. جلب الفرّاش الشاب مع الشاي صحناً من الكعك. هل كنتَ هنا في فترة الحرب؟ سألته.

لا، أنا كنت أعيش في السويد، وعدتُ مع أوائل المنفيين في بداية مايو(مايس). كانت أعمال السلب تجري في الطريق من عمّان بين سيارة وأخرى.

كان "أبو عبير"من الكوادر الشيوعية المتقدمة حينما بدأت حملة المطاردة ضد الحزب الشيوعي العراقي سنة 1979. آنذاك كان يُحضّر لشهادة الدكتوراه في الفيزياء ببلغاريا، لكن وقوع حادث صدام بين الطلبة الشيوعيين والبعثيين آل إلى طرده من بلغاريا، وبعد تنقل في أكثر من بلد عاد إلى كردستان العراق، حيث التحق مثل الكثير من الشيوعيين العراقيين في قوات الأنصار هناك. نزل سنة 1985 إلى بغداد بمهمة حزبية وألقي عليه القبض. بعد محاكمة صورية قصيرة صدر ضده حكم بالإعدام وفي القاعة المخصصة للمحكومين بالاعدام قضى ستة أشهر. كان الحرس يأتون كل يوم ليأخذوا وجبة منا،

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ومن الطابق الأسفل كان صوت انطباق الباب القوي دليلاً على تنفيذ الحكم... كان الوقت العاشرة إلّا خمس حينما جاءوا بقائمة، وعندما قرأها الضابط كان اسمي ضمنها. أنزلونا إلى طابق تحت أرضي أوقفونا في صف واحد حتى الساعة السادسة نراقب الباب الانزلاقية متى ستُفتَح لندخل إلى غرفة التنفيذ. ثم حضر مسؤول آخر ليعلن عن عفو جاء تواً من الرئيس وتحول الحكم فيه إلى السجن المؤبد.

في طريقه إلى قاعة سجن أخرى مد "أبو عبير"يده وسحب قبضة من تراب الساحة. فجاء أحد الحراس صارخاً به: ما الذي التقطتَ من الأرض.

لا شيء، لقد عدلتُ فردة حذائي.

التفت الحارس إليه مشيراً إلى أعلى المباني المواجهة لهما: هل ترى تلك النقاط. هناك قناصة أعطيت الأوامر لهم بقتل أي شخص يتلكأ في خطواته. أنت نجوتَ مرتين اليوم. قال الحارس له.

ردد أبو عبير بنبرة واطئة: كنت أريد أن آخذ هذه الحفنة لترافقني أينما ذهبتُ، وهذا ما فعلت. أنا محتفظ بها في كيس قطني صغير تذكاراً لهذه الأرض القاسية بأبنائها. وفي سنة 1989 تمكن من مغادرة العراق سراً وذهب إلى السويد. وهناك بدأ تحوله نحو الديمقراطية مع متابعته للتجربة الاشتراكية الديمقراطية في ذلك البلد.

* * *

كان الفانوس ما زال مشعولاً حينما حضرت ابنته عبير.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شابة متوقدة بحيوية مثيرة للدهشة. استطيع أن أقدّر عمرها في بداية العشرين. بدا وجودها في ذلك المبنى آنذاك حدثا سريالياً في عالم رجالي يبقى واقفاً على ساقيه بفضل البنادق المشرعة في كل مكان. حضرت إلى ذهني عمليات خطف النساء التي قرأت كثيراً حولها بعد انهيار النظام السابق. ماذا تعملين الآن؟ سألتها.

أنا أعمل منسقة بين مجلس الحكم والمنظمات الدولية غير الحكومية.

أردتُ أن أقول: في هذه السن؟

ما أثار انتباهي هو أن حركة جسدها وطريقة حديثها تجعل الآخر، من دون أن يشعر، يتعامل معها كأنها رجل.

هل عشتِ كل حياتك هنا؟

لا أنا كنت في السويد مع أسرتي.

لكن لهجتك عراقية تماماً بدون أي لكنة... ولعل ذلك جعلها تشعر بالفخر.

هل تصدق إذا قلت لك إنني كنت أشعر بالغربة في السويد على الرغم من انني قضيت معظم سنوات حياتي هناك؟ كان عمري ثمانية حينما وصلتُ مع أمي لأول مرة إلى السويد. لكن مشاعر الغربة كانت أعمق مع العراقيين هناك...

بعد مجيئها إلى بلد أبويها الذي لم تشاهده من قبل كان خوفها أن تتعمق مشاعر الغربة التي تحملها بين أنفاسها. وهناك في الناصرية مسقط رأس والدها شعرت بأنها جزء من عائلة كبيرة كانت تنتظرها.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

جدّي جعلني أجلس مع الزائرين الرجـال في مضـيفه... وهناك في تلك القرية شعرت لأول مرة في حياتي أنني أنتمي أخيراً إلى بلد...

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الفصل الثالث: الغليان داخل بوتقة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

24 تشرين الثاني / نوفمبر

اليوم هو في وقت واحد: آخر أيام رمضان للبعض وأول أيام عيد الفطر للبعض الآخر. بالأمس حاول رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق أن يجذب الكل كي يبدأوا العيد معاً لكن هيئة العلماء السنّة أصدرت فتواها باعتبار اليوم الاثنين عيداً في وقت سيعِّيد الشيعة غداً. ليلة أمس ملأت السماء شرارات النار متبوعة بانفجارات مختنقة. إنها زخات الكلاشينكوف احتفاءاً بحلول العيد ولا أظنها سوى تعبير عن تأييد للنظام السابق، فالكثير من مريديه يسكنون في هذه المنطقة.

* * *

في بيت حمودي ووفاء هناك قفص من جريد النخل لم يختلف بأي شيء عن تلك الأقفاص التي كانت سائدة قبل مغادرتي بغداد. نفس الباب الصغير ونفس أغصان النخل التي تتشابك مع بعضها البعض ونفس القبة الجمالونية. في القفص هناك بلبلان ذكران، ولا أدري إن كان هذا النوع من البلابل موجوداً في أي بقعة من العالم خارج بغداد. نفس الألوان التي بقيتُ أحلم بها. الرأس تغلفه غترة سوداء حتى الرقبة، وتحتها هناك بياض ناصع، ثم هناك الذيل الطويل بلونه الأسود والمبطن بلون أصفر. ما الذي يمكن أن يتمناه المرء أكثر من هذه المواصفات في طائر لا يزيد عن حجم العصفور أو أكبر منه قليلا... أما الشدو فهو نفسه مثلما تركته... أحيانا يضيق هذان الذكران بعضهما ببعض فيبدآن بالعراك الحاد فيتم إطلاقهما كي يقضيا وقتا وسط البيت المسقّف حتى يهدآ. كأن العلاقة بين النخل والبلابل البغدادية هي قيد فرضته تقاليد

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

حضارات ظلت تَتَتابَع عبر عشرة آلاف سنة أو أكثر.

* * *

نجتاز بناية تابعة لمؤسسة التصنيع الحربي. بدت عارية بشكل مثير للقشعريرة. يقول نوّار الذي كان يسوق سيارة أبيه، إن هذه البنانية نُهبت أولاً على يد الموظفين ورجال الأمن الكبار فيها عن طريق التقاط تلك الأشياء الثمينة: أجهزة الكاميرا والمكائن والسيارات الفخمة، ثم جاء الأقل مرتبة ليسرقوا الأشياء الأخرى، بعد ذلك جاء الآخرون الذين كانوا ينتظرون دورهم ليأخذوا البلاط والنوافذ والسقوف طبقة بعد طبقة. يقارن نوار الذي لم يمض عليه وقت طويل منذ تخرجه من كلية العلوم: قسم البيولوجي، بين نهب هذه البناية وطريقة التهام الفريسة بعد قتلها. أولاً يتناول الأسد الحصة الأساسية فيها ثم الأناث والصغار، ثم تأتي الضباع لتعالج العظام الصلبة فبنات آوى ثم الطيور الجارحة وانتهاءً بالنمل...

* * *

أصوات انفجارات متلاحقة. هذه المرة في شكل دمدمات قوية متلاحقة. حينما سألت عن طبيعتها كان الجواب مختصراً: آر بي جي. أربع ضربات متعاقبة تفصل إحداها عن الأخرى عدة ثوان. لكن أفراد أسرة وفاء وحمودي كانوا مشغولين حقاً باليوم الأول من العيد الذي سيبدأ بالنسبة لهم غداً: شراء أسطوانة غاز جديدة وإصلاح عطل في السيارة ثم تصليح العجلة الاحتياط.

حل الهدوء الكامل مرة أخرى. نسيم الصبا يملأ المكان. كأن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

نوافذ الجنة قد فُتحت على بغداد... هناك غيوم متفرقة فضفاضة تتخلل السماء العميقة الزرقة. سرب من الطيور أطلقها صاحبها في الفضاء تتجول بدون عوائق أو خوف.

* * *

أسترجِعُ مشهد دورية المصفحات الأميركية التي كانت تسير التاكسي بحذر وراءها. كان الجندي الذي أخرج نصف جسده من سقفها مسلطاً بمدفعه الرشاش صوب خط السيارات المتابع لآخر مصفحة وحينما مررنا من تحت جسر تلفَّت إلى أعلى مدققاً إن كان هناك من سيهاجمه من فوق.

حضرتني في تلك اللحظة قصة طوفان نوح. تساءلتُ بصمت ما إذا كان ذلك الفيضان الذي مسح الحياة عن مدن وادي الرافدين القديمة مجرد استعارة لغزو هائل يماثل ما أراه الآن أمامي.

* * *

المرور ببساتين وارفة على جانبي الطريق تعود لخير الله طلفاح خال الرئيس السابق ووالد زوجته الأولى.

بالقرب من الجسر ذي الطابقين هناك آثار قصف لقصور رجال السلطة. الآن أشاهد طابوراً طويلاً من السيارات ممتداً عند حافة الرصيف. ها أنذا أرى مقدمته تلتحم بمحطة وقود. سمعت أن الكثير من السواق ينتظرون كل اليوم كي يتمكنوا من الحصول على البنزين. بالمقابل أشاهد عدداً كبيراً من الصبيان يفترشون الأرض ويضعون أمامهم أوعية بلاستيكية مملوءة بالغازولين والبنزين لبيعها بأكثر من عشرة أضعاف

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

سعرها العادي.

* * *

إشارات المرور إما مثبتة على الضوء الأحمر أو على البرتقالي النابض بين الانطفاء والاشتعال، فهي قد تعطلت منذ الاحتلال، لكن السواق يحاولون بدونها أن يتجنبوا ارتكاب أي خطأ قد يؤدي إلى حادثة. قد يكون أحد أسباب هذا الحذر هو التخوف من رد فعل الآخر الذي قد يكون مسلَّحا. مع ذلك وحين حدوث اختناق في نقطة تقاطع معينة يظهر شاب من نقطة مجهولة، كأنه مرسل من العناية الإلهية ليبدأ في تنظيم المرور بواسطة حركات يده. اليوم شاهدتُ شاباً يرتدي بلوزة مخططة الألوان في نقطة تقاطع وهو يوجه حركة السيارات. وإذا كانت أغلبية السواق التزموا توجيهاته فإن عدداً قليلاً منهم تجاهلوه واندفعوا في تجاوز دور الآخرين.

* * *

حواجز على شارع أبي نؤاس وجنود أميركيون يجبرون خط السيارات للانحراف إلى طريق فرعي. أمامي بيوت مخصصة للعاملين في قصر الرئاسة تعمل على الطاقة الشمسية احتلها الفقراء بعد هروب أصحابها.

* * *

عرصات الهندية منطقة غربية أنيقة كانت مخصصة لسكن رجال المخابرات وعائلاتهم. وهي واحدة من الزوايا المفضلة لأبناء النخبة الحاكمة السابقة. ها هو المسرح الوطني الذي تم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بناؤه بعد مغادرتي العراق. مبنى ضخم تظهر على ملامحه آثار القصف والسرقة.

25 تشرين الثاني / نوفمبر

الشعور بالتباعد بين مناطق بغداد ناجم عن الحضور المتواصل للخطر في أذهان الناس فكل من يخرج صباحاً إلى عمله هناك في نقطة من نقاط لا شعوره يعلق احتمال في عدم عودته حياً. أشار نوّار أثناء سياقته إلى شعار مكتوب على الحائط: لا للإرهاب وقتل المواطنين.

* * *

ابتدأ العيد في بغداد للبعض يوم الاثنين وللبعض يوم الثلاثاء ولآخرين سيكون غداً الأربعاء. إنه وسيلة لاختبار مدى التأييد الذي يكسبه هذا الطرف الديني أو ذاك. غيم رمادي ثقيل يغطي السماء تماماً هذا الصباح ولعله يبشر بسقوط المطر لأول مرة منذ أكثر من عام.

* * *

التقيتُ في بيت أهل حمودي بإخوته. فهم يلتقون كل عيد لتناول الفطور والغداء معاً. اللغة السائدة بينهم مثلما هي الحال الآن بين الكثير من الفئات الشعبية في بغداد مشبعة بالطائفية: السنّة والشيعة. نحن وهُم. قبل أن أغادر بغداد كانت اللغة السائدة: الشيوعيين والبعثيين، والأخيرون كانوا في طور توسيع قواعدهم عبر الترغيب والترهيب. نحن وهُم. ألتقطُ حديثاً عن السنّة الذين حكموا العراق لألف وثلاثمائة سنة والآن

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تحرر الشيعة من ذلك.(هل أقول لهم أن أفضل رئيس وزراء للعراق أسقطه شيوخ العشائر الشيعة كان شيعيا أيضا: فاضل الجمالي). كذلك كان هناك موضوع العيد. إذ لم يكن ممكناً أن يظهر أي هلال ليلة الأحد كي تعلن هيئة علماء السنّة العيد في اليوم اللاحق. وماذا عن عدم الإفطار في اليوم اللاحق؟ لقد كان الغيم هو المانع لمشاهدة الهلال، وهو في نهاية المطاف إكمال للعدة. وافق كريم تحت محاججة أخيه الأكبر حمودي أن يفطر فوراً. قال الأخير ضاحكاً: أنا اتبع مجلس الحكم الانتقالي. اليوم هو العيد للجميع. لكن ذلك لم يغير من موقف أخوته الآخرين: نحن نتبع ما يقوله السيستاني. ردد أحدهم بنبرة قاطعة.

* * *

ما زالت السماء مغطاة بغيوم رمادية سميكة، وما زال المطر يهطل بنعومة ودأب... البيوت التي تلبَّسها لون أحمر كابٍ يذكّر بلون العاصفة الترابية التي اجتاحت العراق في أواخر آذار/ مارس وحولت المشهد إلى يوم دينونة من نوع خاص، ولعل هذا المطر سيحررها من ربقة ذلك اللون الذي اخترق واجهاتها وخلق في المدينة مناخا غرائبيا.

* * *

انقطعت الكهرباء (التي يكتفي الناس بتسميتها بالوطنية) أكثر مما كان متوقعاً فراح أزيز المولدة الدؤوب يتصاعد من الحديقة الامامية في بيت وفاء خالقاً شعورا بالإرهاق من حديث ممل ومتكرر. أتذكر تعليق كريم عن الخوف الناجم عن الانفجارات: أن أسمع صوت أي انفجار يعني أنه تجاوزني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بسلام فالموت يتحقق قبل أن يتمكن الشخص المعني من سماع صوت القنبلة أوالرصاصة.

هناك في حركة الناس قدر كبير من الخوف الذي تكلس تحت سطح غريزة البقاء. غريزة البقاء لا بالمعنى البهيمي البحت بل هو بالمعنى الأوسع: الاحتفال بالحياة.

* * *

الأمراض النفسية التي يحملها الصغار معهم ناجمة عما يثيره أزيز الانفجارات اليومية من ذكرى لتلك الحرب التي وجد الناس أنفسهم مرميين خارج سياق إرادتهم ومحكومين بمنطق المصادفة والحظ المحضيين.

ميس في سن السادسة عشرة. وأثناء الحرب جاءتها رصاصة عبر النافذة لتستقر في ساقها بدون أن تنفجر. كان على أبويها أن ينقلاها بسرعة إلى المستشفى وسط القصف الجاري آنذاك... حالياً هي تعاني من الكآبة. نصحها الطبيب النفساني أن تكتب يومياتها كوسيلة للعلاج عبر تفريغ ما هو مكبوت من ذعر في أعماقها.

* * *

التقيت برعد ابن الخالة الذي تركته حينما كان صبياً في سن الثانية عشرة. لا أتذكر عنه إلا تلك الشيطنة المحببة في الصغار. كان عمره 16سنة حين اعتُقل ووضِع في سجن "نقرة السلمان" الصحراوي بعد تهجير أبيه إلى إيران بتهمة "التبعية الإيرانية". ولم يشفع له أن تكون أمه سنّية، بل صودر بيت العائلة ورميت الأم وابنتها إلى الشارع. من ذلك السجن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المخصص للمحكومين الشيوعيين في العهد الملكي أُطلق سراحه من السجن تحت شرط أن يخدم في الجيش وما كاد يلتحق فيه حتى نُقل إلى الخطوط الأمامية لمحاربة "الفرس المجوس".

يقول رعد إن إطلاق سراحه يعود إلى وجود أمه وأقاربها أما أولئك الذين لم يبق أحد من عوائلهم في العراق بعد تهجيرهم قسراً فقد جرت عليهم تجارب كيميائية وبيولوجية ولم يخرج أي منهم حياً من سجن "نقرة السلمان".

26 تشرين الثاني / نوفمبر

علمنا عن طريق الفضائية "العربية" أن مقر القوات الاميركية ووزارة الإعلام قد تعرضا إلى قذائف لكننا لم نسمع لها صوتاً.

تختبئ القطط في محرك السيارة المركونة في حديقة البيت الأمامية الصغيرة. لذلك فمن الضروري فتح غطاء المحرك والتأكد من عدم وجود أي منها هناك قبل تشغيله السيارة. باستثناء الطارمة الاسمنتية الصغيرة المخصصة للسيارة لا تزيد مساحة الحديقة الأمامية في بيت وفاء وحمودي عن مستطيل صغير يعلوه العشب وبجانب الجدار الفاصل عن الشارع هناك ثلاث شجرات نارنج مصطفة إحداها جنب الأخرى. وعند حافة الطارمة استقرت مولدة الكهرباء وبرميل صغير للبنزين المستعمل في تشغيلها مع قمع لتسهيل سكب النفط في المولدة.

المطر ما زال يواصل سقوطه. تلوح أسلاك الكهرباء للعين متدلية أكثر مما كانت عليه قبل يومين والأعمدة اكثر انحرافا.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

27 تشرين الثاني / نوفمبر

مررنا بتقاطع طرق. كانت هناك سيارة مرسيدس زرقاء متروكة، وبالقرب منها كان هناك شرطي يحث السيارات على التحرك بسرعة. قال لقريبي السائق حاثاً: تحرك بسرعة هذه السيارة مفخخة، مما دفع الأخير إلى المضي وسط السيارات المتكدسة في نقطة التقاطع تلك قبل انفجارها. حضرني سؤال اخترق طبقة القلق من احتمال سماع انفجار عارم: هل كان تحذير الشرطي حقيقياً أم هو نوع من المزاح الثقيل؟ من يدري. كل شيء ممكن في هذا العالم المتعدد الحقائق.

في بيت وفاء وحمودي، أتابع معهما الفضائيات العربية كلما عدت إلى بيتهما.

كل التقارير المصورة عن العراق تؤكد أنه أصبح جحيماً أسوأ من جحيم دانتي، إلا لسكانه: خلال الأيام القليلة التي أمضيتها هنا، شاهدتُ كم كانت الشوارع تضج بالحياة والحركة، وكم ظل أقاربي حريصين على دعوتي للغداء أو العشاء وسط الشموع أحياناً، رغم أنهم كانوا يسكنون في قلب هذا الجحيم.

على ضوء ذلك، تشكلت لدي قناعة فنطازية اليوم: إذا كان العالم المحيط بهذه البقعة قادراً على رؤية النيران المتفاقمة وسط هذا الجحيم فإن سكانه لا يشعرون حتى بها، وربما بفضلها يتضاعف توقهم للحياة: الأسواق والمطاعم والمقاهي مكتظة بروادها، وسط الانفجارات والمعارك الدموية.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

28 تشرين الثاني / نوفمبر

اليوم فقط تمكنت من الوصول إلى بغداد حقاً. كان الحافز زيارة سوق الكتب في شارع المتنبي. ذهبتُ مع حمودي. وكان فراغ الشوارع عاملاً مساعداً في الوصول سريعاً إليه. قطعنا الطريق من باب المعظم إليه على الأقدام. كانت الدقائق التي تمر مربكة لذاكرتي... ها أنذا أرى المكتبة الوطنية وآثار التدمير التي لحقتها. أمامها مدخل وزارة الدفاع، يسترعي انتباهي ذانك المدفعان الأثريان اللذان يعودان إلى العصر العثماني، إذ منهما سرقت اسطوانتاهما النحاسيتان ليبقيا كعربتين تخلى عنهما حصاناهما. قال حمودي إن هناك عوائل فقيرة تسكن حالياً في مباني الوزارة الواقعة وراء الواجهة العريقة التي احتفظت بطابوقها الأصفر الملتمع تحت وهج الشمس.

كنت في تلك الجولة التي تتحكم بإيقاعها سرعة قدمَي حمودي أتلمس بحذر تلك المعالم سعياً إلى إيجاد أواصر بينها وبين الذاكرة. كأن هناك شبكة تسعى إلى اصطياد الخارج لكن شيئاً في النفس ظل يخفق بدون انقطاع: ليس تذكراً لحدث أو لشيء محدد. بل هو استرجاع ذلك المكان الذي ظل حاوية لزمن مغرق في قدمه. ترى كم تختلف حالتي الآن عن حالة أهل الكهف عند عودتهم إلى مدينتهم بعد نوم مديد؟

* * *

شارع الرشيد بعد اجتياز ساحة الميدان: ظهرت بناياته على الجانبين متداعية بشكل صاعق للبصر. هل أنا حقاً غادرته لست وعشرين سنة فقط؟ أخيرا ها نحن نستدير يميناً لندخل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شارع المتنبي. آنذاك شعرت أنني أعرف الاتجاهات واستطيع أن أتحرك لوحدي في بغداد.

تمتد الكتب على أسفلت الشارع بدون أي قيود. كأن الشارع فرِشت فوقه سجادة من الكتب. هنا يمكنك أن تجد كل شيء فكل التيارات تتعايش في سلام داخل هذا الشارع القصير: كتب ماركسية، كتب دينية، كتب في الطبخ، كتب تاريخية، كتب أدبية... وكان ممكنا مساومة الباعة. الحصيلة: جزئان من كتاب عن الأمير عبد الإله، كتاب عن محكمة المهداوي، كتاب علي الوردي عن ابن خلدون، ورواية جيمس جويس كانت لدي نسخة منها قبل مغادرتي بغداد: صورة الفنان في شبابه.

* * *

اختراق سوق السراي المسقّف.

يبدو أن عمليات التجديد قد محت ملامحه القديمة تماماً ففقد ذلك الغموض الذي كان يكتسيه بسبب العتمة وقدم الجدران. كل شيء فيه تحول إلى دكاكين متشابهة مبنية بالطابوق الأصفر، ولا خيط يجمعها بالماضي. كانت جميع المحلات مغلقة.

بعد الوقوف قليلاً على مقدمة "جسر الشهداء" الذي بدا لي مثلما تركته ثم التطلع إلى نهر دجلة الذي بدا مترعاً ومتدفقاً بفرح، انتقلنا إلى الطرف المقابل له. دخلنا إلى مسجد قديم. كان المناخ في داخله يبعث على الهدوء. كأن هذا العدد الكبير من المساجد في بغداد هو الذخيرة التي تمنع وقوع عنف في الشوارع يخرج عن المألوف: حرب أهلية مثلاً.. شعور غريب بالطمأنينة... إنه الجذر الباقي الذي لم تمسه أصابع التغيير.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المرور بمسجد الخلفاء العباسي. إلى جواره اختلطت المباني الحديثة والقديمة بفوضى كاملة. اختراق سوق الشورجة الذي بدا شبه خاوٍ، فالعيد مازال مستمراً لاولئك الذين ابتدأوه يوم الأربعاء.

الوصول إلى سوق الغزل المفتوح: طيور وحيوانات غريبة في أقفاصها، كان يمكن مشاهدة باعة الأرصفة وهم مستغرقون في عد النقود التي تسلموها تواً من زبائنهم... كأن قوانين السوق لا تعرف حواجز.

29 تشرين الثاني / نوفمبر

شاحنة تحمل براميل بنزين أو كازولين. يتساقط منها السائل سريع الاشتعال بانتظام على الطريق.

مصفحة هُمفي تجلس فوقها جندية وأمامها مدفع رشاش موجَّه صوب السيارات المتحركة وراءها. تقترب السيارة التي تليها مباشرة من المصفحة فتتأهب الجندية لمواجهة احتمال تصادم متعمد.

* * *

عاود المطر الناعم سقوطه طوال الليل، وهذا ما جعل الشوارع الفرعية تمتلئ ببرك المياه، فأكثر المجاري تعطلت منذ حرب 91.

* * *

طريق الخط السريع صوب الكرادة مزدحم بشكل غير

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

طبيعي.

إنه أول يوم بعد انتهاء عطلة العيد وبدء الدوام. أستطيع أن أشاهد عبر زجاج السيارة المتحركة ببطء سلحفاتي مدهش تلك الإعلانات العملاقة عن السلع على امتداد الشارع: ظاهرة جديدة.

* * *

مرة أخرى في مقر "الاتحاد الديمقراطي العراقي".. عند الباب هناك مثل المرة السابقة قبل العيد ثلاثة حراس مسلحين برشاشات. هذه الحالة سائدة في كل مقر وموقع حكومي فالخوف من أعمال انتقامية تقوم بها أجهزة الأمن السابقة يظل موجوداً. أتذكر ما قاله "أبو عبير" عن خوفه المستمر حاليا من الاغتيال على يد أجهزة الأمن السابقة التي أصبحت هي الآن تعمل تحت الأرض بينما المعارضون الذين كانوا إما في الخارج أو تحت الأرض برزوا إلى السطح، ومن السهل تصفيتهم.

طرح إبراهيم الذي وجدته أمامي مرة أخرى سؤالا حول ما إذا سمعت بغرق السفينة المحملة بعراقيين أثناء توجهها إلى أستراليا سنة 2002. سألني إن كنت أستطيع إثارة القضية في الغرب.

* * *

تشبه حالة العراقيين تلك المواد الكيميائية التي توضع مع بعضها البعض في بوتقة ثم توضع فوق النار وينساها الكيميائي لوقت طويل.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

قصص تولِّد أخرى. هذه هي الحال في بغداد. يكفيك أن تجلس في مكان ما ويأتمنك الآخرون حتى يبدأوا بسرد حكاياتهم كلا على حدة، كأنهم منِعوا من بث شجونهم عقوداً عديدة، وهاهم فجأة منِحوا كل الحق لأن يقولوا ما يشاؤون. لكن عليهم أن يجدوا أحداً لم يعانِ من حرمان البوح بدواخله كي يضمنوا لهم أذناً صاغية. وبالطبع، مطلب كهذا عسير التحقق.

بعد ساعة من لقائي بمجموعة من الأقارب الشباب الذين تركتهم أطفالاً، استأثر رعد من دقائقها بحصة الأسد مما دفع أحدهم لمعاتبته: نحن أيضا نريد أن نتحدث.

ما يبعث على الدهشة هو هذه الروح الخارقة للمألوف: القدرة الكبيرة على التحمل والتكيف. يقول اللواء المهندس أبو أنمار من الاتحاد الديمقراطي مبرراً: إنهم مروا بقساوة الحرب العراقية- الإيرانية وخلالها أصبح الموت أمراً مألوفا. تحمل موت الأقارب والأصدقاء الذين ظلوا يُقتلون يومياً في تلك المطحنة البشرية الكبرى، ثم مروا بحرب الخليج الثانية وفترة الحصار. يقول أبو أنمار إن ما مرّ على العراق خلال التسعة أشهر الأخيرة سبقه إعداد غير عقلاني استمر لأكثر من 20عاما، ولو مر أي شعب جار بهذه الظروف لحصل انهيار كامل له.

30 تشرين الثاني / نوفمبر

استطيع أن أفهم سبب الموقف المعادي للحرب وإسقاط النظام في الغرب: عدم استعداد الفرد هناك تصديق ما جرى من جرائم مهولة لم تعرفها البشرية من قبل. فهو في حالة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تصديقه لها سيفقد القدرة على العيش بشكل طبيعي: أن يذهب إلى العمل يومياً، أن يلتقي بصديقته بانتظام، وأن يذهب إلى البار المحلي كل يوم.

منشورات «ألف باء» AlfYaa

الفصل الرابع: بغداد: رقة وقسوة مفرطتان

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

30 تشرين الثاني / نوفمبر

كان الوصول إلى بيت الخالة سعاد حدثاً خاصاً بالنسبة لي، فهو أول بيت يمت بصلة للماضي. ها أنذا أقف أمامه ساعياً لاستحضار أي تفاصيل عنه فلا أسترجع شيئاً سوى موقعه، فهو يقف ضمن صف قصير من البيوت ويقابله صف مماثل، وعلى نفس هذا الشكل بُنيت هذه البلدة ووزّعت على ضباط الصف في منتصف الستينات. "هل طليتم الجدران"، "لا... لكننا بنينا طابقا آخر كما ترى".

على السور الواطئ الذي يفصل بين الحديقة الصغيرة والشارع كانت هناك ثقوب واضحة. "إنها شظايا القنابل العنقودية" قال الابن الأصغر. "في هذا الشارع تابعت طائرة عربة كانت تطلق صواريخ أرض جو فدمرتها". لم تكن في نبرة محمود أي مشاعر تعاطف مع من قُتل آنذاك. هل هو التعود على الموت أم هي قناعة واسعة من أن الدفاع عن الوطن هو دفاع عن صدام ونظامه؟

* * *

ظننتُ أن اكتشاف كوامن البيت الداخلية أسهل لي من الخارج، فأنا عشت عامين في بيت الخالة حينما كنت طالبا في الجامعة. "هذه هي غرفتك". لكن المعالم تغيرت أو لعلها مُسحت من الذاكرة. وحينما قرأوا حيرتي فوق وجهي بادرت الخالة: نحن وسّعنا المطبخ... خرجتُ من البيت، واستدرتُ يساراً. توقفتُ عند نهاية الصفين المتقابلين، وفي لحظة شبيهة باسترداد البصر حضرت لي جغرافيا الطرق، كيف سأذهب إلى الكاظمية ومن هناك إلى الأعظمية... لكن المكان نفسه ظل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

غائماً في الذهن يتراوح بين بصمات التغيير على أرض الواقع وعلى أرض الذاكرة.

تحكي الخالة عن تحسن وضعهم المالي. التقاعد كبير الآن وابنها الأصغر تزوج من بنت عمته وهذا ما ضمن لها عناية خاصة من كنتها. لم أجد أي شيء يذكّرني بالخالة التي تركتها فقد بدت الآن شبه مقعدة بعد أن أصيبت بجلطتين دماغيتين، تحت تأثير السكر. حكى ابنها الأوسط محمد عن مغافلتها لهم الآن وتناولها للحلويات وكيف تدهورت حالتها قبل أسبوع مما اضطروا إلى أخذها إلى طبيب. وهناك اكتشفوا الحقيقة. بدت خالتي كأنها طفلة قبِض عليها وهي تقوم بعمل لا يرضى عليه والديها. "لا تصدق ما يقولون". أستطيع أن أشاهد علائم القليل من الرفاهية من خلال الأجهزة الكهربائية الجديدة التي اشتروها في الفترة الاخيرة.

* * *

كنت قد سمعت عن أصابة عدي ابن خالتي سعاد البكر بانهيار عصبي بعد انتهاء الحرب مع إيران وما تلاه من مذابح للأكراد المدنيين في ما عرِف آنذاك بـ"حرب الأنفال" اللعينة. حيث شاهد بعضاً من فصولها الرهيبة. وحينما عاد إلى بغداد أصابته فترة من الهذيان، لكن مروره بفترة علاج طويلة مكّنته من استرجاع الرشد ثم الزواج والعودة إلى الخدمة العسكرية.

هذه الليلة سأبيت في منزل الخالة سعاد، وغداً سيرافقني عدي في سيارته "التاكسي" مع أخيه محمد في جولة لقاءات واسعة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

1 كانون الأول / ديسمبر

بغداد مدينة تتعايش فيها القسوة والرقة المفرطتان جنباً إلى جنب. من سيارة المقدم المتقاعد عدي. تلتقط عيناي بعض الإعلانات المكتوبة فوق جدران المباني عن أسماء أحزاب، تكاثرت بطريقة عجيبة خلال الأشهر الأولى التي أعقبت سقوط النظام السابق: حركة أحباب العراق الديمقراطية؛ التجمع من أجل الديمقراطية؛ منظمة الضباط والمدنيين الأحرار...

بوابة بغداد: طريق التاجي. أشاهد مبانيَ عسكرية قُصفت أولاً ثم تمت سرقتها لاحقا. يبدو أن تقليد تقدم اللصوص في لحظات الكوارث وسلب ممتلكات الضحايا ظاهرة طبيعية متكررة عبر كل العصور وفي كل مكان: الجزائر بعد الزلزال الذي أتى على مدينة الأصنام في بداية الثمانينات، ونيويورك بعد هجمات 11سبتمبر... أمامي مصفحة هُمفي وعلى ظهرها يقف جندي أميركي وهو يمضغ باللبان. يذكرني مشهده بمدربي دوري الدرجة الأولى الإنجليزي وهم يمضغون اللبان أثناء مراقبة فرقهم تخوض غمار المباريات- المعارك تخفيفاً للتوتر.

جسر التاجي: قنطرة مؤقتة فوق الجسر الذي هدمه الجيش العراقي لمنع تقدم القوات الأميركية. هنا دارت معارك أيضاً إذ تقدم الأميركيون على بغداد من هذا الطريق. سيارة عدي التي يستعملها كتاكسي منذ حُلَّ الجيش مهلهلة بشكل مروع. زجاجها متشقق وكل أجزائها الداخلية متآكلة تماماً. مع ذلك يستطيع أن يكسب من خلالها جزءاً من نفقات العيش التي تحتاج إليها أسرته إضافة إلى التقاعد الصغير.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

* * *

الوصول إلى منطقة على أطراف بغداد لزيارة الصديق علي محمود الذي يعمل حالياً في مبنى مجلة آفاق عربية. مراجعة الدوائر الحكومية: هذا القلق من وجود سيارة مفخخة بالقرب منها يجعل الناس حذرين ومتوترين.

أسترجع اللقاء برئيس حزب الشعب في صالة الاستقبال داخل الاتحاد الديمقراطي العراقي: الشعر المستعار الأسود والنظارة الطبية السوداء. أنا رئيس تحرير ثلاث صحف أيضا: البشائر والنسائم والرياضة الشعبية... أنا من أنصار نشر الرياضة بين الناس العاديين مثلما هي الحال في أميركا. نحن سنفتح مقراً جديداً للحزب ومن الضروري أن تأتي...

أمام الاستعلامات بمجلة "آفاق عربية" تقدمت سيارة من نوع الصالون الكبيرة فخلقت توفزاً بين العاملين هناك. طالب أحدهم بتفتيشها قبل اختراق البوابة. الحارس يتابع السيارات ويسجل أرقامها على الرغم من معاناته من إعاقة جسدية. دخلنا إلى غرفة الاستعلامات وكان على كل منا أن يكتب اسمه في سجل مركون على طاولة أمام الموظف المعني. كان هناك أيضاً رشاش مخفي وراء الطاولة. بعد انتظار تجاوز النصف ساعة اتضح أن الصديق علي قد خرج من المكتب قبل أكثر من ساعتين.

* * *

في طريقنا إلى بيت جمال شُبَّر: السماء مغطاة بغيوم واطئة. ليلة أمس، غمر المدينة ضباب ولوقت قصير. عندما يتكلم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الناس عن أي شيء تم بناؤه سابقاً يقولون: لقد "بناه" هو بدون ذكر اسم صدام. كأنْ ليس هناك أي دور للكوادر وعوائد النفط الهائلة في بناء الجسور والشوارع والمساجد. باعة البنزين والغازولين في كل مكان وأغلبهم من الصبيان. أقرأ على الجدران هذه الإعلانات بخط اليد أو بالختم: الجمعية الخيرية لإنقاذ الأطفال؛ حزب السلام العراقي؛ الحزب الجمهوري الوطني... كان مجرد التفكير بمثل ذلك قبل ثمانية أشهر كافياً لصدور حكم الإعدام أو المؤبد على صاحبه.

لم يتغير جمال كثيراً عن طبيعته. يمكن قراءة الخجل والتمرد الشديدين على وجهه في آن واحد. وسط العتمة شاهدتُ لوحات رسم جميلة. قالت زوجته ثناء: هذه آخر أعمالي. تنقلنا من موضوع إلى آخر تحت ضغط الشعور بضرورة المغادرة. تحدثنا عن الوضع السياسي، وحالة اليأس الكبيرة من الأحزاب السياسية التي ظهرت إلى السطح بعد انتهاء الحرب. قال جمال محتداً: ما زال الحزب الشيوعي يرفع الأعلام بالمنجل والمطرقة. مَن يستخدم المطرقة اليوم مع التكنولوجيا الحديثة؟

* * *

اللقاء بسامية في بيت أختها: كان عليّ تجنب زيارة سامية التي جاءت من الولايات المتحدة للبقاء مع أختها مدة شهرين. فتح صهرها الباب: رجل في الستينات من عمره (أو هكذا أوحت لي ملامحه)، جلسنا في غرفة الضيوف. كان المكان غارقاً في عتمة تتعارض مع ضوء الشمس الباهر في الحديقة. كانت هناك صورة شاب محاطة بشريط أسود. عرفتُ من جمال عن مقتل أوميد ابن أخت سامية. شاب لم يمض أكثر من

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عام على إكماله الجامعة حيث درس اللغة الإنجليزية، ومع غياب فرص العمل عمل مترجماً مع القوات الأميركية. في الأعظمية التي لا تبعد عن الوزيرية كثيراً أطلق شخص الرصاص من مسافة قصيرة عليه ليرديه قتيلا فوراً. كان الأب الجالس أمامي غارقاً في حالة شرود كامل أثناء شربنا للقهوة المُرّة، في وقت كانت سامية وأختاها ملفعتين بثياب سوداء. اندفع والد أوميد منتقداً الاحتلال الأميركي: إنهم جاءوا ليسرقوا ثرواتنا... هل تعرفون أن عمليات سلب النفط والغاز والفوسفور والكبريت والزئبق الأحمر جارية على قدم وساق كل دقيقة منذ دخولهم إلى العراق... لكن نبرة حديثه تغيرت فجأة: لماذا يمنع الأميركان ميليشيات الأحزاب الكردية والعربية من احتلال تكريت وتصفية كل المتعاونين مع صدام...

حضرت أخت القتيل: فتاة أنيقة بملابس ملونة. لا أظن أن عمرها يتجاوز العشرين ومعها شاب لا يزيدها في السن إلا بأعوام قليلة. إنه ابن عمتها، قالت سامية، وهو يدربها على الجيتار... إنها حريصة على متابعة دروس الموسيقى. غادرا البيت فوراً بعد أن ودعانا... هذا هو الطريق لوقف الجنون والخراب الروحي: مواصلة الحياة.

* * *

المرور في قاعة حوار القريبة من بيت جمال. هناك أمام المبنى حراس مسلحون أيضاً. في الداخل هناك حديقة صغيرة تحولت إلى مقهى للقاء المثقفين. وكأن ذلك المكان ملاذ آخر من الخارج. في الداخل هناك قاعة واسعة غصت بالناس وهم يتابعون مشاهدة لوحات رسم ومنحوتات. كان هناك معرض

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لمجموعة من الفنانين العراقيين. التقيتُ بكريم رسن الذي سبق له أن شارك في معرض قبل ثلاثة أشهر في لندن. وهنا تجد شكلا آخر من مقاومة قوة الهدم المخفية في جزيئات الهواء. كانت بعض الأعمال مدهشة في ثيماتها ومعالجاتها الجريئة. وكأن الفنانين يحاولون الخروج من مدرسة بغداد التي وضع أسسها جواد سليم وآخرين في فترة الخمسينات لكن مع إبقاء ذلك الامتداد لها. في لوحة كريم رسن تلمستُ ذلك الجذر الذي تركه شاكر حسن آل سعيد عليه لكن في الوقت نفسه هناك صوت آخر خاص.

بعد جلوس قصير في الحديقة. شاهد فاضل شخصاً يعرفه: إنه عزيز طالب الصيدلة المولع بالفلسفة والأدب آنذاك. كم سافر فاضل السلطاني معه إلى بيته في كربلاء أيام الدراسة الجامعية. وحينما ذهب إليه وبادره بالتحية، لم يتمكن الآخر من تذكره... الفاصلة الزمنية هي مجرد ثلاثين عاما فقط.

* * *

شارع السعدون: تبدو المحلات والمباني متهالكة وبدلاً من ارتداء ألوانها الزاهية التي كانت تتسم بها قبل خروجي من بغداد ظهرت كأنها تكتسي غلالة من الغبار الأحمر الطيني بعد أن تمكن من اختراق سطوح واجهاتها، لتعكس ذلك اللون الأحمر الخابي الذي يضع المرء في زمن خارج الحاضر... اللون الأحمر الباهت علامة قابيل تذكيراً بحدث الحرب.

كانت الساعة حوالي الثالثة والنصف حينما وصلنا إلى مقر الحزب الشيوعي. في الطابق الأرضي، الذي بدا كأنه صالة واسعة، وُضِع عدد من الكنبات والكراسي المعدنية. جاءني

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شخص ليفاجئني: هل تعرفني؟ وظلت عيناه مثبتتين على وجهي تسعيان لمساعدتي على التذكر. كان هناك جدار عازل بين ذاكرتي وبينه. بعد أن اعتذرتُ له أعطاني بعض التنويهات المساعدة: الجزائر العاصمة في بيت حسين الكاتب... يا إلهي إنه يتكلم عن عام 77... تظاهرت أنني تذكرته. المفاجأة الكبرى: هو يعرف صديق العمر فاضل العكام، الذي عاد من اليمن قبل أسبوعين فقط. "هل تريد أن تراه؟" "متى؟" "الآن".

* * *

تنحيتُ جانباً حينما دق محمد على جرس الباب. تركت ابنَي خالتي يتقدمان لمصافحة فاضل العكام. ومن موقعي بقيت أراقب ملامحه: ما الذي تغير فيه؟ هل ستسترجع ذاكرتي ملامح وجهه؟ عدا تلك السمنة التي اكتسبها، والتي يمكن لذاكرتي تجاهلها بدا لي نفس ذلك الشخص الذي كنت أجلس معه وراء نفس الطاولة، أثناء عامَي الدراسة الثانوية. وبفضله تعرفتُ إلى عوالم دوستويفسكي وفرويد وسارتر وكامو وتشيخوف وغيرهم. نفس تلك الابتسامة المُطَمْئنة والنبرة الرقيقة التي تجعل الآخر يشعر كأنه يعرفه منذ فترة طويلة. وبفضل هذه الصفات استطاع التنقل من بيت إلى آخر تحت وطأة مطاردة السلطة له حيث وفر أصدقاء كثيرون مع أسرهم الحماية له، وهو الذي توفي والداه حين كان طالبا في الثانوية. لم يشعر بالمفاجأة لرؤيتي. إذ بلغه خبر وصولي إلى بغداد قبل ساعة واحدة عن طريق زوجة صديق مشترك آخر.

2 كانون الأول / ديسمبر

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عدتُ إلى بيت وفاء في ساعة متأخرة. بدا الضيق على وجهها بالرغم من قدرتها الفائقة في إخفاء ما يقلقها. بدلاً من ذلك تحرص وفاء على خلق شعور بالاطمئنان لدى الآخر. المشكلة الجديدة هي تعطل السيارة التي تأخذ الابن الأصغر إلى المدرسة. وعادة يستخدم الكثير من أبناء الطبقة المتوسطة ما يُعرف بـ "الخطوط" لإيصال بناتهم وأبنائهم الصغار إلى مدارسهم، بعد انفلات الوضع الأمني في بغداد وانتشار ظاهرة خطف الأطفال والفتيات خلال الأشهر الأولى التي أعقبت سقوط النظام السابق. ووفق هذا النظام يقوم السائق يومياً بنقل مجموعة من الطلبة الذين يسكنون ويدرسون في نفس المنطقة. وهذا النظام أصبح سائداً بالنسبة للموظفات للتنقل بين بيوتهن وأماكن عملهن.

* * *

كان اليوم حافلا باللقاءات والأحداث ابتدأت بزيارة مرقد الكاظمين والتمشي في منطقة الكاظمية، ثم الذهاب إلى باب المعظم. كانت هذه هي المرة الثانية التي أستقل فيها واسطة نقل عامة. تحرك الميني باص ببطء عابراً الجسر الرابط بين منطقتي الكاظمية والأعظمية. المعالم التي تركتها ورائي قد تغيرت إما بسبب تجديد بنائها أو بسبب حالة الإهمال الطويلة. ذهبتُ مع محمد ابن الخالة سعاد الأوسط إلى مقهى أم كلثوم الواقع على شارع الرشيد. ما أثار انتباهي العالم السكوني الباهر الذي يحتفظ هذا المقهى به، فعند وصولنا حوالي الثانية عشرة ظهراً كانت أغنية "رق الحبيب" تتغلغل في ذرات الهواء منبعثة من جهاز تسجيل ذي بكرتين كبيرتين تذكران بزمن مغرق في القدم يتعارض مع التجديد غير المتوقع الذي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عرفته صالة المقهى. إنه أول مكان عام أراه مجدداً بهذا الشكل الجميل. إذ أُستُخدم الطابوق الأصفر الذي يعدّ سمة بارزة من سمات معمار بغداد القديم في تغطية جدرانه الداخلية.

وصل فاضل العكام إلى المقهى قبلنا. وكان علينا أن ننتظر صديقين آخرين. لكن الشك تعمق لدينا مع مرور الوقت من أنهما قد ذهبا إلى مقهى آخر يحمل نفس الاسم: فهناك على امتداد شارع الرشيد الطويل مقهى اسمه "كوكب الشرق" وآخر يحمل اسم "عشاق أم كلثوم". بعد الاستفسار عنهما أخبرنا صاحب المقهى أنهما أغلِقا منذ عدة أشهر.

* * *

القسوة تتجلى في روح الأنانية البارزة في حركة السيارات فليس هناك أي سائق مستعد للتخلي عن موقعه لصالح الآخرين. إنه صراع من أجل البقاء في كل مناسبة وبدون أي تراجع. يذكرني هذا المشهد بتلك النباتات الصحراوية التي انكبت مشدودة بالأرض اليباب بعد أن لفّت أغصانها بالأشواك الجارحة للتقليل من درجة استهلاكها للماء.

قال فاضل العكام إنه شاهد لوحات لفنانين عراقيين مشهورين تُعرَض مع قطع الخردة الأخرى للبيع بالقرب من مقهى أم كلثوم. خرجنا مسرعين بحثا عنها لكنها اختفت مثل فص ملح ذائب. وعندما سأل بعض الباعة عنها أجابه بعضهم بطريقة مريبة: نحن لم نر لوحات هنا. قد تكون هناك عبر الشارع.

3 كانون الأول / ديسمبر

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

في مسرحية آرثر ميللر "البوتقة" تتفشى روح البحث عن الساحرات لقتلهن وحينما يشعر كل شخص في القرية أنه المعني راح يتهم غيره. هذه الحالة هي التي سادت منذ الثمانينات في العراق، فكل شخص في موقع المتهم وعليه أن يثبت براءته عن طريق اتهام أحد غيره.

بدأت بغداد بنفض التراب عن كاهلها بعد سقوط المطر. الكل تتقمصه روح شهرزاد. هناك قصص حزينة، قصص مرحة، قصص فلسفية...يحكي لي أحد الشعراء الشباب عن مشاهدته صباغ أحذية جالساً في زاوية من الشارع منكباً على تلميع حذاء زبون في الوقت الذي كان الناهبون يعجّون في كل مكان بعد سقوط بغداد وهم يحملون شتى أنواع المسروقات من الدوائر الحكومية. لماذا لا تشاركهم؟ سأل صباغ الأحذية. أنا عندي أخلاق تمنعني من ذلك، أجاب الآخر بكبرياء عالية.

* * *

شارع الكرادة: تتكدس على رصيفي الشارع التجاري المزدوج صناديق كرتونية بحجوم مختلفة تثير الدهشة. في هذه الصناديق هناك ما لا نهاية من السلع الجديدة: تلفزيونات وثلاجات ومسجلات وغيرها في وقت تركن إلى جانبها أقراص "الدِّش" بمقاييس مختلفة يبلغ قطر بعضها حوالي مترين. الجو مشمس اليوم والهواء عذب تتخلله قرصة برد رحيم. يمكنني مشاهدة بعض التجديدات تجري على واجهات المحلات بضمنها طلاء الجدران ووضع قطع إعلان جديدة.

اكتسبت بعض الفيترينات التماعاً مثيراً للدهشة. الطريق يمتد حافلاً بالحركة والاستعداد لفرش كل هذه السلع بانتظار

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

قدوم الزبائن... الساعة الآن في حدود الحادية عشرة صباحاً.

التقيت في الشقة الواسعة التي أصبحت مقر جريدة "القاسم المشترك" بالدكتور محمد المبارك. لم يكن اللقاء إلا مصادفة جاء خارج السياق فكشف لي عن جانب صغير كدنا ننساه في غمرة تسارع الأحداث: وجوه بغداد الثقافية التي تشكل أغلى ما فيها من كنوز. هل أستطيع أن أقول إن أستاذ الفلسفة المتقاعد الذي يعمل الآن في تلك الصحيفة تحت ضغط العوز المالي هو واحد من هذه النخبة الصامتة ؟

انتقلت أطراف الحديث الذي جمعنا بعيداً عن الحاضر. فالدكتور المبارك درَس الفلسفة الإسلامية في بريطانيا قبل فترة طويلة وهو قريب في رؤاه من الشيخ ابن عربي. فبفضل ذاكرته الحادة راح ينقل لي نصوصاً يحفظها عن ظهر قلب لأحاديث نبوية سجلها ابن الطبري في كتابه: في أسباب النزول. "لَقطرة من مداد عالم خيرٌ من دماء أريقت في سبيل الله". أو "الناس اثنان عالم ومتعلم وما عدا ذلك همج رعاع لا يعبأ بهم الله". انفتحت ذاكرة محمد المبارك على سيل من القصص التي تصب باتجاه مبدأ وحدة الوجود ثم اختتم ذلك اللقاء العابر بأبيات ابن عربي الشهيرة: لقد صار قلبي قابلا كل صورة...

4 كانون الأول / ديسمبر

اللقاء بفاضل العكام. تحدث لي عن بعض ما جرى في بغداد في فترة التسعينات قبل مغادرته إلى اليمن سنة 1997.

حملات المداهمة: تفتيش شارع بأكمله والقبض على كل الناس فيه ثم إجراء التحقيق معهم فرداً فرداً حيث يمر كل

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

محتجز بمحققين مختصين بالشؤون السياسية والمالية والأمنية. ضِمنَ التحقيق يتعرض المستجوَبين للتهديد بأن عقوبات قاسية بانتظارهم إن هم لم يقدموا كل ما يعرفونـه عـن جـيرانهم وزملاء عملهم وعن أفراد عوائلهم، ثم تنتهي هـذه الحملـة باعتقال آلاف الناس من بين المحتجزين ومن الخارج.

حملات التفتيش والمداهمة: وتجري هذه لقواطع من أحياء معينة بعد فرض منع التجول على سكانها ثم البدء بالإنزال والهبوط فوق السطوح يتبعها تفتيش البيوت بشكل تفصيلي، وفي حالة العثور على أي شيء يدل على أن الفرد كان يقرأ أو يمتلك أي قصاصة تمتدح أي طائفة أو فئة أو طبقة فإن عقوبة السجن المؤبد تكون بانتظاره.

كيف أصبح السلاح والعنف جزءاً من نسيج المجتمع بهذا الشكل؟ قال العكام. هذا الوضع بدأ منذ اندلاع الحرب العراقية-الإيرانية، إذ منذ ذلك الوقت دخل السلاح إلى المدارس وأصبح الجميع طلبة وأساتذة يتدربون على الكلاشينكوف. وإذا لم يكن التلاميذ يُعطَون عتاداً فإنه لم يكن عسيراً الحصول على بعض منه واستخدامه بشكل حي. بعد انتهاء تلك الحرب ظل عرض ما وقع خلالها من أحداث دامية يُعرض يومياً على شاشة التلفزيون عبر برنامج مخصص لهذا الغرض: "لكي لا ننسى"، وفيه يشاهد الناس جيلا بعد جيل مشاهد الحرب المروعة... إنه تعويد على الدم والقتل واستعداد للمشاركة فيه.

التستر على "المجرمين" أعداء النظام هو جريمة كبرى. كل الحلاقين وأصحاب المطاعم وغيرهم أصبحوا آذاناً للنظـام. الشعور بأنك متهم باستمرار وعليك أن تدفع عنك هذه التهمة هو ما يجعلك ميالاً لرفع تقارير عن جيرانك وأسرتك. هل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كافكا هو الآخر عراقي عندما كتب روايته "المحاكمة" التي تدور حول شعور المتهم بالذنب على الرغم من أنه لم يتم تعريف جريمته ولم يتمكن هو من الكشف عنها حتى مقتله.

* * *

اليوم عند الساعة الرابعة والنصف صباحا قُرع الجرس بانتظام وإلحاح . توجهتُ إلى المطبخ لفتح نافذته المطلة على الحديقة الأمامية، لكن مَيس حضرت على عجل، في تلك اللحظة، لتمنعني القيام بذلك. ثم ذهبت بخفة إلى الطابق الأعلى. ومن نافذة معتمة تمكنتْ من تمييز إمرأتين تقفان عند الباب الخارجي. وبعد إيقاظ حمودي ووفاء اتجه أبواها إلى الباب.

عرفتُ بعد استيقاظي لاحقاً أنها حالة مرضية: حصاة في المرارة. فَتَحْتَ سطوة ألم ممض جاءت الجارة مع ابنتها إلى بيت وفاء لطلب المساعدة. وبعد زرقها بإبرة وإعطائها حبة ضد الألم وإبقائها مستلقية مدة ساعة ذهبت المرأة إلى بيتها مرتاحة... ما الذي ستفعله تلك المرأة لو لم تتوفر لها مساعدة من الجيران؟

* * *

الوقت ظهرا: حديقة الأمة مشعشعة بضوء النهار الصاخب. لم يتغير شيء من نصب الحرية لجواد سليم. كم ستكون صدمة كبيرة لي لو لحقه الخراب مثل غيره أو لو سرقت قطعه المثبتة فوق جداريته الطويلة المطلة على ساحة التحرير. لم تكن هذه المنطقة حتى لفترة متأخرة آمنة وتسمح بالتنزه والتقاط الصور

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مثلما أفعل الآن. ما خلا تلك الحديقة الصغيرة التي احتضنت تمثال خالد الرحال: الحرية، بدت كل الأشياء المحيطة بها مغرقة بقرويتها ورثاثتها. أثار انتباهي الحشيش الذي فقد نعومته تحت الأقدام وغياب أي شخص آخر عدانا معني بمشاهدة تمثال الحرية.

ذهبنا إلى قاعة كولبنكيان للفن الحديث، وهذه تقع قرب ساحة التحرير. في الطريق كانت الأرصفة غاصة بأعداد خيالية من الباعة المتجولين الذين صفوا بضائعهم عليها: كاسيتات وأقراص مدمجة وملابس داخلية ولعب أطفال. ووسط ذلك الحشد الريفي ظلت أصوات المسجلات تردد قصائد في مدح آل البيت. كانت صورة القاعة الشهيرة في ذاكرتي زاخرة ببهاء خاص يعود إلى تلك السنوات التي كنا نتابع فيها معارض الرسامين البارزين كاظم حيدر وشاكر حسن آل سعيد وفائق حسن وحافظ الدروبي. لكن عينيّ لم تلتقيا إلا بمبنى خربٍ تماماً أشبه بالكهوف. كان حجم التشوه أكبر من أن يثير شيئاً من الذاكرة البعيدة التي تعود إلى زمن ذهبي لم أكن آنذاك أقدّر عظمته. أين ذهبت اللوحات إذن؟ ففي هذا المركز كان كنز الرسم الحديث الذي شهد تطوراً هائلاً في فترة الخمسينات وبرزت فيه أكثر من مدرسة فنية تضم عدداً من الفنانين البارزين. هل هو قدر هذا البلد أن يشهد الطوفان من وقت إلى آخر. ليبدأ من جديد بلا ذاكرة؟

* * *

اقترح فاضل العكام أن نذهب لإلقاء نظرة على سينما غرناطة التي لا تبعد عن ساحة التحرير أكثر من مائتي متر. كانت تلك السينما مدرسة لكلينا ففيها شاهدنا أفلاماً عالمية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كثيرة منها "زوربا" لكازنتزاكي و"طريق الصدمات" و"الزيارة" لدورنيمات وعشرات الأفلام المقتبسة من روايات عالمية. كنا آنذاك في الثانوية حينما أصابنا الهوس بالسينما الراقية، وكانت سينما "غرناطة" هي الدليل الموجه لنا.

لكنني التقيت بمكان آخر لا يمت بصلة بما تركته قبل 26عاما. هنا اخترق الخراب "الفعلي" نسيج الجدران عبر الأرضة وسوسة الخشب لتدفعه صوب تشوه فجائعي. وأنا أتلفت حولي في هذا الشارع المغرق ببشاعته اكتشفتُ كم كانت بغداد جميلة وكم كنا مغفلين عن هذه الحقيقة. أو لعلنا لهذا السبب كنا مفعمين بفورة الفضول المعرفي غير المحدود.

لم يكن الفيلم المعروض له صلة بتلك الأفلام التي كنا نشاهدها. إنه فيلم خلاعة رخيص على الرغم من غياب أي صورة على اللوحة المغطاة بالزجاج يوحي بذلك. أختاه... أختاه هذا هو اسم الفيلم. طلبتُ من فاضل العكام أن يلتقط لي صورة عند مدخل السينما ووراءي كانت صور هذا الفيلم تنبئ باسمه وموضوعه. فجأة ظهر رجل أربعيني يتبعه شاب. فمد يده إلى الكاميرا ليسحبها بالقوة من فاضل. "لماذا تفعل ذلك"؟ قال له فاضل وهو يحاول استرجاع الكاميرا. "اسحب يدك" صاح الآخر منفعلاً. "ما الخطأ الذي اقترفناه". "انتم قبل أن تصوروا يجب أن تأخذوا إذنا مني... من يقول إنكم لستم من الموساد أو القاعدة.. أعطياني جوازي سفركما".

في داخل السينما وبعد أن اطمأن أننا لم نكن سوى حالمَين يسترجعان زمناً ولّى بدون رجعة. راح يتحدث عن سبب تصرفه: أنا أول شخص فتحتُ السينما بعد 9أبريل. وقبل أسابيع قليلة ضُرِبت هذه السينما بقنبلة. انظرا إلى آثار

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الخراب. لقد قُتل شخص في الحادث. أنا شيعي ولكنني ضد تدخل رجال الدين في السياسة... لماذا لا تُحترَم رغبات الناس... من يريد الذهاب إلى السينما فليفعل ومن يريد أن يذهب إلى المسجد فليفعل. في هذا الشارع هناك سينما ومسجد ومحل لبيع المشروبات الروحية وكلنا خائفون لماذا؟ يجب أن تكتبا عن ذلك". قلت له مهدئاً: "أنا معك في كل ما تقوله". أضاف بنبرة معتذرة وهو يعيد الكاميرا: "إذا سمحوا لنا بجلب أفلام جيدة فنحن سنقوم بالتأكيد بذلك... انظرا إلى الشقوق على السقف والمياه التي تتسرب فيها والأرضة..." حضرني سؤال ونحن نغادر تلك المنطقة التي بدت شديدة البشاعة بعكس صورتها في الذاكرة: كيف سيكون وضع السينما عند زيارتي الثانية لبغداد؟

5 كانون الأول / ديسمبر

يحاول مصطفى جاهداً حفظ قصيدة "بغداد" للشاعر المصري علي الجارم:

بغداد يا بلد الرشيد ومنارة المجد التليد

يا بسمة لمّا تزل زهراء في لوح الخلود

لكنه لفظ "لم" بدلا من "لمّا" وحينما ذكّرته بالفرق قال وماذا يهم. طلبت منه أن يعيد قراءة البيتين مرة أخرى. ثم الاستعداد لحفظ أبياتها الأخرى. اعترض مصطفى على طول القصيدة على الرغم من أنها لا تزيد عن 8 أبيات.

خرجتُ الساعة السادسة مساء اليوم لشراء بعض الملابس والهدايا. ذهبت معي وفاء ونورس وميس إضافة إلى نوار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الذي تولى سياقة السيارة. كان حضور البنتين وأمهما معي مخالفاً لما هو متوقع. إذ لم تمض سوى أربع ساعات عن انفجار لغم في منطقة بغداد الجديدة وخلّف وراءه ثلاثة قتلى عراقيين وأميركي بعد أن أصاب لغم حافلة عراقية بدلاً من إصابة مصفحة أميركية.

كان المطر غزيراً يجعل الرؤية ضعيفة وهذا ما عمّق خوفي من وقوع عطل في السيارة وسط تلك المسافات المعتمة الفاصلة بين منطقة السيدية والكرادة. مررنا بنقطة سيطرة للشرطة العراقية. استبشر جميع من في السيارة خيراً وهم يرددون عبارات التشجيع لرجال الأمن الشباب. قالت وفاء لهم: "ليحفظكم الله". ولا بد أنها استحضرت في ذهنها أولئك الجنود الذين قُتلوا غدراً خلال الفترة السابقة.

* * *

التهيؤ للسفر: إعداد الحقائب. يبدو على البعض حالة انفعال واكتئاب. مصطفى يواصل حفظه للنصوص الإنجليزية بعد أن حفظ القصيدة... غداً سيكون عنده امتحان.

6 كانون الأول / ديسمبر

كان نومي متقطعاً. بات فاضل في منزل وفاء وحمودي بعد أن ودع أمس أهله في "سدة الهندية". انتابني، ونحن نتناول الفطور وسط الوجوم الذي ساد بين الصغار، شعور بأن هذا البيت كان شبيهاً بواحة وسط عالم مزعزع. حضر نوّار في حدود التاسعة. كان علينا أن نغادر مبكرين فالطرق ستزدحم بالسيارات بعد قليل، ووقت المغادرة على بطاقات السفر هو

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الحادية عشرة صباحاً.

اخترقنا طريقاً فرعياً غاصاً بالبساتين تجنباً لاختناقات الشارع المار بمنطقة المنصور، مررنا بحي مسوّر كان خاصاً بسكن الوزراء. "إنه أشبه بالسجن". قال فاضل. "لم يكن مسموحاً للسواق المرور بهذا الطريق". أجاب نوّار.

كل شيء بدا مغسولاً في المدينة، فكأن مبانيها قد نفضت عن كاهلها غبار الحروب ولم يبق هناك بدلاً عنها سوى ضوء الشمس وسماء زرقاء... كان الهواء العذب يراوغنا بتأجيل فكرة السفر. حتى الآن نحن أجّلناه ثلاث مرات. ها نحن نمر بالمتحف الوطني. اختفى من أمامي تمثال حمورابي الذي ظل معروضاً منذ طفولتي للمارة، مذكِّرا إياهم بأول مشرِّع قانون في تاريخ الإنسان. وقبل أن نصل إلى جسر الأحرار توقفت السيارة.

* * *

بدا انتظار تحرك الحافلة دهراً. كانت عيناي معلقتين بالمودعين: وفاء ونوّار. خالي سعدي وزوجته، وفاضل العكام. هكذا كأن العالم لم يتغير مثلما تركته قبل ست وعشرين سنة إلا بتلك الغضون التي زحفت إلى الوجوه وبقدوم وجوه جديدة إلى الحياة أصبحت وعن بعد جزءاً من دائرة تفكيري: أبناء وفاء. حضرتني في تلك اللحظة آلاف الأسئلة والانطباعات، مخترقة حواجز اللغة وقصورها. ما الذي سيجري لهم عند قدومي ثانية إليهم؟ هل سيفلت العراق من المراهنات التي تتنبأ بانهياره؟ هل ستتحرك حالة الخمود فيه لتصبح قوة مولدة شبيهة بتلك المولدات الكهربائية الصغيرة التي تبث الضوء والدفء في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مكامن عتمة البيوت البغدادية؟ وهل ستبقى هناك واحة يستطيع الطير المهاجر الالتجاء إليها ولو إلى حين؟

* * *

في الطريق إلى دمشق.

التوقف بعد رحلة ساعتين ونصف في مقهى موحش. وبعد انتهاء فترة النصف ساعة المخصصة للاستراحة وتناول الطعام اتضح أن هناك نقصاً في عدد ركاب الحافلة. صاح أحد الجالسين في السائق: انتظر.. هناك اثنان ذهبا لتأدية الصلاة .. الانتظار نصف ساعة أخرى. لم يحتجّ أي من الجالسين. كانت الوجوه متجهمة ومنتظرة بصمت. فالتأخر سيبقينا في الجانب العراقي عند حلول الظلام... السائق سوري ببرودة أعصاب تناسب الوضع. ها نحن معلقون بانتظار قدوم المتخلفين. علق أحدهم ساخراً: هذا بسبب الديمقراطية.

رافقنا على امتداد الرحلة صوت جورج وسوّف. كانت معظم أغانيه على الكاسيت مستعارة من المغني سعدون جابر بنبرة تخلو من الحزن الفجائعي الذي يتميز به المغنون العراقيون عن جدارة. أو بشكل أدق كان جورج وسّوف عاجزاً على نقل ذلك المناخ الشعوري الذي ظلت الأقوام القادمة للعراق عبر شتى العصور تجدده، ابتداءً من جلجامش وانتهاءً بفرقة "ثلاثي العشاق المعذبين" والغجرية الصاعدة "هجران".

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وما زالت الشمس تشرق على بغداد بورتريه بالأبيض والأسود

(1)

على عكس عادتي عند سفري، لم أسجل يومياتي خلال زيارتي القصيرة لبغداد ما بين 28 آذار/ مارس و14 نيسان / أبريل 2015، وهذا ما يجعلني أشعر الآن بالندم، فالوقت الذي قضيته كان ممتلئا بلحظات حميمة هزتني من الداخل وكان علي أن أتماسك عاطفيا أثناءها، فرحلتي الأسبق التي استغرقت أسبوعين جاءت بعد الغزو الأمريكي- البريطاني للعراق بسبعة شهر. وقد مضى الوقت آنذاك سريعاً في مدينة كانت تعيش وقع صدمة الحرب والاحتلال وسقوط النظام السابق. وكان سكان بغداد ما زالوا أشبه بالمريض الذي أخرج للتو من تحت مبضع الجراح الذي أجرى له للتو عملية جراحية خطيرة استؤصلت فيها خلية سرطانية ولا أحد يعلم إن كان هذا التدخل الجراحي سيعرّض الجسم ككل لتفشي المرض القاتل في كل خلاياه. كل ما أتذكره ذلك القصف المدوي الذي تقوم به طائرات الهليكوبتر على بعض مناطق المدينة، وتلك التفجيرات التي تطال الأماكن العامة فيتردد صداها في شتى أنحاء بغداد. كذلك، انعكس ذلك الشلل الذي أصاب المدينة بانقطاع خطوط الاتصالات الهاتفية بعد قصف الطائرات الأمريكية للأبراج والشبكات، فما عاد بالإمكان الاتصال بالأصدقاء القدامى عبر هواتفهم الأرضية. كانت فترة تشبه يوم دينونة خاص بهذه

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المدينة: كل شيء محمل باحتمالات عديدة، ومع فراغ السلطة وأجهزة الأمن وتلاشي النظام والقانون أصبح الناس يبحثون عن خيوط تجمعهم ولم يكن هناك سوى الطائفة والعشيرة التي تمنح قدرا من الشعور بالأمن. لكن الاتجاه لم يكن واضحا حتى ذلك الوقت: كانت آثار الحرب قائمة على الجدران وفي نفوس أهالي بغداد، ممتزجة بشعور يتراوح ما بين البهجة للتخلص من النظام السابق والأمل المحفوف بالشكوك بأفق مستقبلي أفضل.

ثلاثة مظاهر ظلت عالقة في ذهني من تلك الزيارة القصيرة التي أعقبت سقوط النظام السابق:

- حرص الطبقة المتوسطة على استمرار أبنائها في الدراسة. ولضمان حمايتهم تشاركت العائلات مع بعضها البعض في استئجار سيارات أجرة اطلق عليها اسم "الخطوط" وكان السائقون أشخاصا موثوقا بهم جاءوا عبر توصيات الأقارب والأصدقاء.
- احتفاظ شارع المتنبي بحيويته كل يوم جمعة، بل أن الكتب تكاثرت على أرصفته بشكل مثير للاستغراب: كانت أقراص المغنية مادونا موضوعة جنبا إلى جنب مع كتب ماركس ولينين وسارتر. كأن الشارع يبشر باقتراب تحقق الديمقراطية في العراق، وكم كان ذلك الشعور مخادعا.
- اشتداد التمايزات بين السكان لا على أساس طائفي فحسب بل على أساس الانضواء تحت عباءة رجل الدين هذا أو ذاك. كان عيد الفطر أفضل مثال عن

منشورات «ألف باء AlfYaa»

هذا الانقسام: ابتدأ السنة عيدهم يوم الاثنين، في حين تبنى جزء من الشيعة يوم الثلاثاء، والآخرون يوم الاربعاء!

- بروز ظاهرة البسطيات بشكل مهول في كل شوارع بغداد وخصوصا في المناطق الراقية كالكرادة والمسبح، وعلى الأرصفة فرشت سلع شديدة التنوع من براغٍ وأسياخ حديدية إلى لوحات فنية نادرة لتذكر بأعظم "فرهود" (نهب جماعي واسع) حدث في تاريخ العراق الحديث لممتلكات المجتمع العامة بعد سقوط بغداد بيد الجيش الأمريكي يوم 9 نيسان / أبريل 2003.

(2)

علقت أختي، وفاء، وهي تتطلع في وجهي مستغربة من آثار الزمن فوقه: "لقد تغيرتَ كثيرا". ذكَّرتها بأن 12 سنة مرت على زيارتي الأولى والأخيرة منذ سقوط النظام السابق، فأجابت متحسرة: "نحن لم نشعر بها .. كأننا لم نعشها."

استحضر الآن بعد مرور أكثر من شهر على عودتي إلى لندن جملتها، واستحضر معها ابن خلدون، وفكرته الأساس التي ظلت مقدمته تدور حولها: الدولة ضرورة أولية لاستمرار المجتمع ككيان حي حتى لو كانت ظالمة. لقد جاءت كلمة "دولة" بالنسبة إلى العرب من الفعل "دالَ" والتي تعني حسب

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

معجم المعاني الجامع "دار أو انقلب أو تغير" وعندما نقول "دال الأمر" يعني انتقل من حال إلى حال. وهذا ما يمنح فكرة أن من يدير الدولة يزول بعد تحقق الغلبة لقبيلة أو تحالف قبلي ما على القبيلة الحاكمة. ولعل اختفاء امم وشعوب كثيرة في العصر القديم هو أن الغزاة الجدد لم يريدوا أن يأخذوا بزمام دولة المجتمع المغلوب على أمره وفضلوا تدميرها، وبذلك اختفت مدن اسطورية من الوجود مثل قرطاج وتدمر على يد الرومان لأن الأخيرين قطعوا شريان الحياة على شرط الحياة الأولي لهذه المجتمعات: الدولة.

تحضرني هذه الفكرة وأنا أتابع غياب "النظام والقانون" عن الحياة اليومية لسكان بغداد: قوة الدولة العربية وثباتها في أول مراحلها تكون بفضل العصبية القبلية أو الدينية أو المذهبية حسب ما يراه ابن خلدون. وحالما تضعف هذه الأواصر في الجيل الثالث، مع جلب الحاكم الأجانب لتوفير الحماية له بدلا من أبناء طائفته أو قبيلته بعد إقصائهم عن منافع الحكم، يبدأ الضعف بالتوغل في جسم هذه الدولة وتصبح مهيأة للوقوع بيد قبيلة غازية أخرى تشد أبناءها أواصر العصبية بقوة كافية للانتصار.

ها هي إشارات المرور ما زالت على حالها كما تركتها عام 2003 متوقفة على الضوء الأحمر في نقاط التقاطع. وغالبا ما يجد السائقون وسيلة ما للتعايش في تلك النقاط. فخلال فترة إقامتي القصيرة لم أشاهد سوى مشاجرتين صغيرتين انتهتا من دون أن تسيل الدماء فيهما.

لقد ابتكر أهالي بغداد طريقة مدهشة مكنتهم من الحفاظ على إيقاع حياتهم السابق بغياب مؤسسات الدولة الحامية للفرد من

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قضاء وشرطة ومحققين: ضخ الحياة بجسم شبه ميت هو العشيرة، وما يرافقه من قواعد وأصول تسمى بـ "فصل عشائر". لهذا السبب، وجدتُ العديد من الأصدقاء القدامى الذين لم يحملوا يوما لقبا عشائريا قد أدخلوه اليوم على أسمائهم. وفي حالة عدم وجود امتياز كهذا لبعض سكان بغداد القدامى فإنهم يستطيعون أن يستظلوا بحماية عشيرة ما.

بفضل هذه الطريقة أصبح الكل يتحرك في الشارع وهو على علم بأن هناك سقفا عليه عدم تجاوزه مع الآخر تجنبا لما يترتب عليه من دوامة الدخول في هذا العرف القديم (ما قبل المديني) إذ قد يُضطر إلى دفع ثمن أي حماقة يرتكبها تحت وطأة الغضب الناجم عن ازدحامات الطريق الخانقة.

لكن هذا الحل لم يوقف اللصوص من كسر البيوت وسرقتها دون وازع، ولم يمنع السفاحين من ممارسة القتل من أجل القتل، دون وجود سلطة رادعة، مما يجعلهم يسرحون ويمرحون طلقاء وعلى قناعة تامة بأن ما يقومون به لا يعدو أن يكون رياضة لقتل الملل، كذلك هو الحال مع السيارات المفخخة، التي هي الأخرى لا تكف عن حصد أرواح المدنيين عشوائيا، وعادة لا يضعها السفاحون إلا في أماكن تجمع الناس، مثل المطاعم والمقاهي والساحات.

(3)

خلال فترة تواجدي ببغداد، سمعت بانفجار خمس سيارات

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مفخخة ومقتل شابين غدرا. مع ذلك، اعتبر أحد الأصدقاء هذا الرقم ضئيلا جدا مقارنة بما شهدته بغداد خلال عامي 2006، و2007. آنذاك كان القتل على الهوية المذهبية منفلتا دون قيود، وتفرق العائلات المختلطة (طائفيا) جاريا على قدم وساق. يحكي لي ابن اختي وفاء، وهو يسوق سيارته صوب بيت أسرته: "في هذا الشارع كنا نرى كل صباح جثثا ملقاة لمدنيين اصطيدوا على يد الميليشيات، ثم وضعوا في صناديق السيارات الخلفية ليتم رميهم هنا!" أصبح البغداديون يستخدمون تعبير: "وضِع في الصندوق" إشارة مخففة ومرحة لما حدث لهذا الشخص أو ذاك.

في تلك النوبة الجنونية التي حلت بخلايا قليلة من جسم المجتمع، خسر العراق آلاف الشباب والكثير من الكوادر العلمية، ولا أستبعد أن يكون بعض من تلك الخلايا السرطانية من مخلفات النظام السابق، ففدائيو صدام انقسموا بعد سقوط بغداد حسب الانتماء الطائفي بين الميليشيات، ولم يكن هؤلاء مدربين إلا على القتل والانتقام.

الطبيعة لا تحب الفراغ، وفي غياب الدولة، تبرز ظاهرة زعماء الحروب العنيفين، الذين ينجحون في جذب عدد من الشباب غير المتعلم أو العاطل عن العمل أو المهووس مذهبيا: هنا تصبح الجرائم مقبولة: وتبريرها الانتقام من الطرف الآخر. كلما قتل ذلك الطرف أناسا أبرياء هم تحت حمايتي سأقوم بقتل أناس يقعون تحت حمايته، وهلم جرا.

كانت تلك الفترة التي مر بها أهالي بغداد الأصعب بين تاريخ ساده العنف والخوف المستديم من الموت امتد من وصول حزب البعث للسلطة عام 1968، مرورا بالحرب

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

العراقية- الإيرانية عام 1980 ثم حرب الخليج الثانية فحرب "الصدمة والروع" الأميركية الأخيرة عام 2003.

لكن العنف الذي عاناه أهالي بغداد بين عامي 2006 و2007 من نوع آخر، فإذا كان الخطر الذي يتعرض إليه المرء خارجيا قبل ذلك: آتيا من صاروخ ضال أو بسبب أفكار معارضة للسلطة، فإنه الآن معرض لقتل عبثي يأتي من دون سبب ناجم عنه. ولمواجهة هذا الوضع كان على السكان الحصول على هوية مزورة أخرى، تمكنهم من الانتقال ما بين المناطق ذات اللون الطائفي الواحد.

لا أستبعد أن العامل العشائري قد لعب دورا فعالا لإنهاء هذه الفتنة التي عاشها العراق لأول مرة منذ تأسيس دولته عام 1921، وترتب عليها نزوح أعداد كبيرة من مناطق سكناهم لأسباب طائفية. فانقسام أبناء العشيرة الواحدة طائفيا ووجود حاجة ماسة للإطار العشائري بديلا عن أجهزة الدولة المنحلة ساعدا على إخماد نيرانها بزمن قياسي. ولعل السبب الآخر هو عمق العلاقات وتواشجها في الذاكرة الجمعية لأهالي بغداد، فهذه المدينة قد عرفت في تاريخها القريب والبعيد تعايشا وتفاعلا بين كيانات دينية ومذهبية وعرقية لم تعرف مثيلا لهما إلا مدن قليلة في العالم. وقد أضيف هذا السبب: انكشاف حقيقة أن أغلب الأحزاب التي تحاصصت الحكم بعد ارتدائها الثوب الطائفي انغمر قادتها بعملية سرقة للمال العام لم يشهد العراق مثيلا لها، ولم يكن "الفرهود" الذي افتتح عصر سقوط النظام السابق سوى تمرين صغير أمام ما حصل من نهب وتحايل، مقابل تدهور في الخدمات وغياب أي تحسن ملموس بشروط الحياة.

منشورات «ألف باء» AlifYaa

أحد مظاهر الفساد الفاقعة التي تدلل على عبقرية من نوع خاص لأصحابها: في تجوالي اليومي ببغداد، كانت ظاهرة المشاريع المهملة في كل مكان: ها هو سور لأرض مخصصة لبناء مدرسة كبيرة، لكن المقاول بعد حصوله على نسبة الـ 20% من الأجر وإشراكه المسؤولين فيه، ترك المشروع بعد البدء به قليلا واختفى عن الأنظار.

يقول لي أحد الأقارب: في بغداد ليس هناك سجن حقيقي للمجرم. كل شيء يمكن حله بالمال.

وكم ينطبق ذلك على عمل بعض الوزارات الخدمية. فالوزير المعين حديثا يجلب معه طاقمه الكبير المكون من أبناء عائلته وعشيرته وبلدته إلى الوزارة ليحتلوا المناصب العليا والصغرى فيها، بالمقابل يقوم بإقصاء الموظفين القدامى إلى وزارات أخرى. ومع جهازه الجديد غير المحترف يتحول الوزير تدريجيا إلى مقاول، يعمل لصالح نفسه وصالح من جلبهم إلى الوزارة.

لذلك تصبح مراجعة المواطن لأي قضية مهما كانت صغيرة عذابا لا يحله إلا دفع رشوة عبر شبكات شديدة التنظيم والفاعلية. من تجارب بعض الأصدقاء، أصبحت الرشوة لا لتسهيل إنجاز قضية مثل تجديد جواز السفر، بل لإزالة العراقيل عن طريق إنجازها. فبدلا من قضاء أشهر وأنت تدور بين موظفين لا يرونك سوى كرة قدم يمررونها بين أرجلهم دون أن يوصلوك إلى الهدف، يمكنك الحصول على مرامك بيوم واحد مقابل أجر يدفع بالدولارات فقط!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

(4)

ما الذي تركت تلك اللعبة اليومية مع الموت في نفوس أهالي بغداد؟ فلا أحد ممن التقيتهم لم يحدثني عن مروره بعربة مفخخة قبل أوبعد تفجيرها بدقيقة، عن سقوط قذيفة على بعد أمتار من بيته، عن مشاهدته مقتل مدني ما على بعد أمتار منه وكان ممكنا أن يكون هو الضحية لا الآخر سيئ الحظ. كأن الخطر الذي ظل يواجهه ابن بغداد قد تحول من شكل إلى آخر: من أن يكون خارجيا قادما في هيئة صاروخ أو قذيفة منتقلة عبر الفضاء، إلى داخلي يأتي في لحظة انعدام أي استعداد للاختباء منه. الفرق ما بين حملة القوات الأميركية وحلفائها: "الصدمة والروع" في أواخر آذار/ مارس وأوائل نيسان / أبريل 2003، وما تلاها من فظائع خلال عامي 2006 و2007، أن الأولى كانت متأتية من طرف أجنبي وإمكانية تجنب الموت قائمة بالاختباء تحت طاولة أو الدخول إلى ملجأ ما، أما مع الثانية فكان الخطر داخليا: قد يأتي من جيرانك أو من شخص عابر لا يثير مظهره أي شك.

كأن هذه الصدمات التي تراكمت دقيقة بعد دقيقة، ساعة بعد ساعة، يوما بعد يوم، قد حولت ابن بغداد إلى شخص قدري بامتياز، أو بصيغة أدق إلى "قتيل محتمل"، كأنه قد سلم بحقيقة أنه قد مات منذ سنوات بفعل تفجير مر به أو طلقة غادرة أطلقها عليه أحد السفاحين المنتشرين في نقاط التفتيش الطائفية. إنه الآن حر من الخوف.

كان الوقت قد تجاوز الساعة الواحدة صباحا في بيت أختي،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وفاء، حينما نهض ابنها البكر، نوار، ليلم عائلته الصغيرة على عجل، كي يعود بهم إلى بيته في الكاظمية. كان طفلاه أحمد وعلي على وشك النوم وعلى تقاسيم وجه زوجته الحامل في شهرها الثامن، سما، بدت آثار تعب اليوم. كان عليه أن يسوق لأكثر من ثمانين كيلومترا، في طرق مظلمة شبه فارغة، في مدينة لم يرفع عنها حظر التجول ليلا إلا قبل اشهر قليلة. وكأني تحت صدمة عدم التصديق صحت به: "لماذا لا تبيتون هنا وتخرجون صباحا". أجاب نوار بنبرة حازمة: "الطرق ستكون مزدحمة في الصباح". وللتقليل من مشاعر القلق التي انعكست على وجهي أضاف: "الطرق آمنة وكل شيء تمام". ما أدهشني لا مبالاة أختي وزوجها، وكأنهما مستغربان من خوفي "غير المبرر"."طيب، حال وصولكم اتصل بنا هاتفيا". وهذا ما فعل.

لكن هذه القدرية عبرت عن نفسها في اليوم الثاني بشكل مأساوي، حين قُتل أحد الأقارب البعيدين في منطقة سكناه السابقة، لقد شاءت المصادفة أن يطلب الزبون من السائق الشاب إيصاله إلى منطقة سكناه السابقة بعد منتصف الليل. وتحت هذا الشعور القدري العميق بأنه مجرد "قتيل محتمل" وافق على أخذه إليها، على الرغم من مقتل أبيه فيها واضطرارهم على أثر ذلك إلى مغادرتها.

لعل هذا الشعور العميق المتفشي بين سكان بغداد وراء الاندماج الكامل بالمسرات اليومية الصغيرة. ففي كل مساء خميس يمكنك أن تشاهد تلك السيارات الفارهة المزينة بأجمل الورود والأشرطة الملونة الزاهية، وهي تقل العرسان إلى أرقى فنادق العاصمة، مرفوقة بموسيقى صاخبة وأهازيج الأقارب والأصدقاء، وفي المطاعم والمقاهي يندمج الأصدقاء

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والأقرباء في لقاءات حميمة مرحة وكأنهم يلتقون ببعضهم البعض للمرة الأولى، وإذا بلغهم خبر وقوع انفجار قريب عن مكانهم بمائة متر، فإنهم سيستقبلونه وكأنه وقع في كابول أو كراتشي.

هل هي المدينة التي تفرض قواعد لعبها على سكانها أم العكس؟ في بيت ابن الخالة، محمود، تدور الحياة بإيقاع منتظم، بنتاه المراهقتان مريم وماريا شديدتا الحرص على التفوق في مدرستيهما، وامهما المعلمة فيحاء حريصة على نظافة البيت وترتيبه وإعداد الوجبات الثلاث في أوقاتها. ما أدهشني كثيرا هو حرص محمود على أناقته، فقبل خروجه من البيت، يلمِّع حذاءه ويكوي قميصه وربطة عنقه المناسبة ويرتدي بدلة لونها يتوافق مع القميص والربطة والحذاء. كل من في البيت حريص على الوصول إلى مكان عمله أو دراسته باكرا. ولتحقيق ذلك، اشترك محمود مع عدد من الجيران في استئجار سيارة أجرة تنقل بنتيه إلى مدرستيهما. كذلك فإنه اشترك مع عدد كبير من الجيران في شراء مولدة كهرباء تعمل بالتناوب مع الكهرباء الحكومية التي يطلق عليها بـ "الوطنية".

لم يكن سهلا علي القبول بهذه الاندفاعة القدرية في الحياة اليومية التي يتمتع بها البغداديون، فأن يعيش المرء كل حياته تحت سلطة القانون والنظام، يصبح الموت احتمالا ضئيلا جدا شبيها بالفوز بجائزة اليانصيب الأولى. كان النوم ليلا في غرفة الضيوف المجاورة للسور الخارجي، ببيت محمود، مبعث قلق داخلي بالنسبة إلي، إذ أيقظ في اللاشعور تلك الأسئلة التي كف أهالي بغداد منذ سنوات عن إثارتها: ماذا يمنع أي حفنة من اللصوص القفز فوق هذا السور وكسر الباب الزجاجي الفاصل بيني وبين الخارج؟ في هذه المدينة التي شهدت خلال الاثنتي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عشرة سنة الأخيرة كل أنواع الفظائع، هل تمكنت الذاكرة الجمعية التي ربطت أبناءها بأواصر القرابة والصداقة والجيرة الطويلة أن تطوي الاختلافات الدينية والطائفية والاثنية جانبا؟

ويبدو كأن بغداد قد وضعت وراءها كل تلك الفظائع التي تفشت فيها كالاوبئة منذ عام 2003، مثل عمليات الخطف الهادفة لابتزاز أهالي المختطفين والقتل على الهوية الطائفية، لكنها وقفت عاجزة أمام تفجير السيارات المفخخة عن بعد أو استيلاء الميلشيات على أملاك الدولة من بساتين وأراض زراعية وجرفها ثم بناء دور عشوائية عليها لانصارها، أو عدم إعادة المهجرين إلى بيوتهم الأصلية.

(5)

ها أنذا على وشك مغادرة بيت اختي وفاء للتوجه الى المطار. مضت أيام العطلة سراعا التقيت خلالها اصدقاء الثانوية المقربين الذين بدأت معهم أولى خطواتي في مغامرة القراءة والكتابة. بدت عيناي وكأنهما ترفضان قبول التغيرات التي طرأت على وجوههم، لكن الاذنين ساعدتاني على اعادة ذلك الخيط الخفي الذي يربط ذاكرتي بهم. كأن الاربعين سنة الفاصلة بيني وبينهم قد تقلصت إلى لحظة إغماض العينين. ها أنذا مندمج بذبذبات أصواتهم التي لم تتغير قيد أنملة. ما زال الماضي حقيقيا وقائما بوجود هؤلاء الأصدقاء، أبحث بينهم عن مصائر الزملاء الآخرين، فتأتيني أخبارهم مقتضبة: بعضهم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قُتِل خلال الحرب العراقية الإيرانية وآخرون قتلوا على يد مجهولين قبل سنتين أو ثلاث، وغيرهم غادر البلد وانقطعت أخباره كحالي.

في الطريق إلى المطار أخبرني السائق أبو أحمد عن وقوع تفجيرين في منطقة البياع الشعبية صباحا، "هل من ضحايا؟" سألته. وكأنه استغرب من سؤالي: "طبعاً. دائما هناك ضحايا." تذكرت التفجير الآخر الذي وقع قبل يومين بجانب فندق بابل، وكان ضحيته عددا من باعة السمك المشوي وزبائنهم. وشاءت المصادفة أنني مررت به بعد ساعتين من وقوع الاعتداء فلم ار أي أثر له. كل شيء كان في مكانه، نظيفا ومرتبا كأن شيئا لم يقع. لقد طورت بغداد أفضل خدمات دفن في العالم. فحال فقدان الأسرة واحدا من أفرادها، تتصل بمتعهد ما ليأتي مباشرة ويقوم بالإجراءات كاملة وبزمن قياسي. لعل ذلك، يجعل الأسرة المثكولة قادرة على تجاوز فجيعة الفقدان واحزانها بسرعة والعودة إلى إيقاع حياتها، ولعل ذلك ما يجعل أهالي بغداد يعيشون الزمن كلحظات منفصلة، لا رابط بينها. ولعل ذلك ما أرادت اختي وفاء أن تصفه حينما قالت إنهم لم يشعروا بمرور 12 سنة على آخر لقاء لي بهم. ولعل هذا هو الفرق ما بين وجود قانون ونظام في ظل دولة ظالمة وعدم وجودهما في ظل الفوضى.

قال لي بعض الأقارب حينما قرأوا علائم الدهشة على عيني وأنا أراقب تلك الجدران. هذه قليلة مقارنة بما كان قبل أشهر قليلة، قبل وصول حيدر العبادي إلى سدة الحكم، فهو الذي أمر بإزالتها وهو الذي رفع حظر التجول الليلي، وما أراه الآن هو فقط لحماية صفوف البيوت الممتدة على الشوارع العامة من السيارات المفخخة والهجمات الانتحارية. كأن لهذه الجدران

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

العازلة صدى في نفوس سكان بغداد: هناك جدران غير مرئية اخرى تنمو في دواخلهم. اعتذر صديق الثانوية، طالب، عن عدم الاتصال بعائلتي خلال سنوات رحيلي عازيا ذلك للجدران الافتراضية التي كان يبنيها النظام السابق بين الناس عبر رجال مخابراته وامنه السريين. أما اليوم فالجدران أصبحت حقيقة واقعة وسببها الخوف من الآخر، الآخر المستعد أن يقتل نفسه إذا ضمن قتلك أيضا. مرض السرطان يحل في الجسم الحي حين تتمرد الخلايا على النظام المتحكم في نشاطاتها، فتأخذ بالتكاثر خارج حدود النظام مدمرة في طريقها كل أعضاء واجهزة الجسم.

واذا اعتبرنا المدينة جسما حياً، فإن بغداد تبدو اليوم في طور التعافي: الناس تعيش حياتها بالكامل، الطرق مملوءة بالسيارات، الأرصفة تضج بالسابلة والباعة المتجولين، ووسط هذه الحشود لا أحد يسأل إن كان الذي يمشي أمامك أو خلفك من ملتك أو دينك أو قوميتك. الكل هنا خلايا تمنحها بغداد الحياة وتمنح هي بغداد الحياة.

وكم يطغى هذا الشعور في النفس عند الذهاب صباح كل جمعة إلى شارع المتنبي. هناك في هذا الطريق الذي لا يتجاوز طوله 300 متر، تحتل الكتب الجديدة والمستعملة الارصفة بشكل لا مثيل له. وما يثير الاستغراب أن أغلبها كتب ثقافية ذات صلة بالحداثة ومناهجها. كذلك يجد الزائر على امتداد هذا الشارع دور نشر وتوزيع ومكتبات وقاعات مخصصة لنشاطات ثقافية. هناك عند استدارتك يسارا في اول منعطف ستكتشف وجود فناء واسع مسقوف وحوله واجهات زجاجية لدور نشر ومكتبات، وفي وسطه انتشرت كراسي تعود إلى كشكين أو ثلاثة يقدم اصحابها الشاي للجالسين بأسعار زهيدة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

هنا في هذه الزاوية يلتقي الأصدقاء كل جمعة، وفي هذا الشارع يتنفس المثقفون الصعداء ويتطهرون من كل السموم والتوترات التي تفرزها مدينة هي نفسها في طور التشافي.

بين بيت أختي وفاء والمطار مسافة قصيرة، وعلى الطريق لم تصادفنا أي من نقاط السيطرة الثابتة، التي يدقق جنودها في أوراق السائقين. في بغداد انتشرت هذه النقاط على الطرق الخارجية وعند مداخل الأحياء الشعبية الكبيرة. وهذا ما يجعل الدخول إليها أو الخروج منها عبر ممر واحد فقط. قد ينتابك احساس أنك في مدينة مصابة بوباء معدٍ، وأن نقاط السيطرة هذه هي للتوثق من أن الراكبين والسائقين محصنون ضد المرض. في لحظات ذكرتني نقاط السيطرة تلك بمدن أفلام الخيال العلمي حين تهبط كائنات فضائية خطرة فيها.

أوصلني السائق أبو أحمد إلى ساحة عباس ابن فرناس، ومن هناك كان علي أن استقل عربة أجرة مع آخرين إلى المطار. إنه إجراء احترازي لتجنب وقوع تفجيرات في النقطة الرابطة بين بغداد والعالم الخارجي. وفي الطريق القصير الموصل بالمطار أوقفت نقطة سيطرة السيارة، حيث جرى تفتيش الركاب وحقائبهم تفتيشا دقيقا. وقبل الدخول إلى المطار، جرى تفتيش دقيق آخر للحقائب والمسافرين شاركت فيه كلاب متخصصة وأجهزة تدقيق اشعاعية وجنود مدربون. وبعد الدخول إلى قاعة المطار تفتيش آخر، ثم بعد تسليم الحقائب، تفتيش دقيق آخر، وقبل الصعود بالطائرة تفتيش دقيق آخر!

من الجو بدت بغداد أزرارا رمادية اللون موزعة على رقعة خشبية شاسعة. وهناك في وسطها يكمن لب تاريخها: ظلت المدينة التي امر الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ببنائها عام 762 ميلادية تتقلب بين عز باذخ وذل شديد. هناك في تلك البقعة ازدهرت محلات الوراقين التي تعادل اليوم دور النشر، وفي طرقاتها مشى الجاحظ وأبو نؤاس وابو تمام وابو حيان التوحيدي والغزالي والفأرابي والخوارزمي وآلاف الكتاب والشعراء والعلماء القادمين إلى "دار السلام" لطلب العلم او التعليم أو كلاهما. وفي هذه المدينة قُتل مئات الآلاف من أبنائها خلال أيام قليلة ورميت آلاف الكتب إلى نهر دجلة حين دخلها المغول عام 1258. هذه المدينة التي ظلت تنبعث من تحت الركام مثل طائر العنقاء كلما اجتاحها وباء جائح أو غازٍ سفاح. إذ بعد انطفاء علائم الحياة فيها سنوات أو عقودا تتسرب في عروقها قطرة قطرة مرة أخرى لتنهض من كبوتها.

بين اللامعنى والمعنى، بين اليأس المطبق والأمل الساطع، تظل بغداد تقلب أوراق لعبها فتمنح لأبنائها بيدها اليمنى عكس ما تمنحهم بيدها اليسرى. ولعل هذه اللعبة ذات النهاية المفتوحة على كل الاحتمالات ما يجعلها مدينة مختلفة عن كل مدن العالم.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ملحق:
قاموس بغداد الجديد:
مصطلحات الحصار والحروب

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بعد قضاء أيام قليلة في بغداد اكتشفتُ وجود مفردات غريبة عن سمعي ما انفك الأقارب والأصدقاء يستعملونها فتنعكس على وجوههم شتى الانفعالات. ومع استغراقي التدريجي في طلب شروحات منهم عن هذه المصطلحات تمكنت من تلمس ثلاث خصائص لها: (1) طابع التورية الذي يجعلها منفصلة عما تعنيه بشكل مباشر أي تلطيف المصطلح بحيث لا يعكس أي شحنة عاطفية، في الوقت نفسه يرتبط بسلسلة طويلة من الحكايات التي تحولت إلى جزء من مخزون الذاكرة الجمعية. (2) روح الدعابة التي تخفف كثيراً عما تنقله من بشاعات ومظالم وقسوة، وهذا يساعد المتلقي على تجرع الواقع والتعايش معه. (3) الحيادية التي تجعل المصطلح خالياً من طابع الإدانة للظاهرة التي يسعى إلى القبض عليها وتعريفها، فهي تخلو بفضل ذلك من طابع النقد المباشر الذي قد يُسبِّب ردود فعل قاسية من الطرف المعني سواءً كان سلطة أو أفراداً. لم تسنح لي الفترة القصيرة التي قضيتها في بغداد (بعد غياب 26سنة عنها) أن أَلِمَّ بالكثير من المصطلحات التي ظهرت خلال العقود الثلاثة الأخيرة وخصوصاً في فترة التسعينات حيث كانت العقوبات الدولية تفتك بشروط الحياة الأولية وتدفع باتجاه الصراع الغريزي من أجل البقاء وبكل الوسائل. لكن قد تشجع هذه العيّنة اللغويين على سبر أغوار هذا الحقل والكشف عن دلالاته السيكولوجية والسيميولوجية.

ورقة: إشارة إلى ورقة المائة دولار. وهذه أصبحت تساوي ما يكسبه معلم بخبرة طويلة خلال عامين من العمل بعد انخفاض قيمة الدينار العراقي الدرامية على أثر احتلال الكويت وما ترتب عنه من كوارث بضمنها فرض العقوبات الدولية على العراق.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

دفتر: 10آلاف دولار، ويبدو أن هذا المبلغ الموضوع في دفتر يضم 100ورقة ذات المائة دولار شائعا في فترة النظام السابق بين أفراد النخبة الحاكمة وأبنائهم، وكانت هدايا الرئيس السابق أحيانا لمن يرضى عنه من زواره دفاتر من هذا النوع.

راح باي باي: قُتل بطريقة غامضة على يد النظام السابق.

حواسم: الأشياء التي سُرقت بعد سقوط النظام السابق من قطاع الدولة أو الأشخاص الذين قاموا بعمليات السرقة. هذه المفردة مقتبسة من عبارة "أم الحواسم"وهي التسمية التي أطلقها الرئيس العراقي السابق على الحرب الأخيرة منذ بدايتها. وإذا كان فعل حسم يعني قطعه مستأصلا إياه فانقطع، فإن المعنى المستعمل هنا هو فض قضية ما بشكل قاطع ونهائي وهذا ما كانت عليه الحرب الأخيرة بعد حرب "أم المعارك"التي أطلقها الرئيس السابق على حرب 91.

حين مررتُ بمبنى وزارة المواصلات شعرتُ بالرهبة: كانت طوابقه عارية من جدرانه تماماً فبدا كأنه هيكل عظمي تلبس لوناً فاحماً بسبب الحريق الذي ظل ينهش أعضاءه قطعة قطعة. قال مرافقي إن هذا المبنى تمت سرقته أولا ثم أضرِمت فيه النيران، ونتيجة لذلك لم تبق منه سوى الأعمدة الحديدية التي ظلت ممسكة بطوابقه بعناد غريب لتصفع عين المشاهد بما جرى يوم 9أبريل.

بالقرب منه ظهر لنا مبنى الأسواق المركزية المهجور بأبوابه المشرعة للريح. يحكي مرافقي كيف أن اللصوص كانوا يغيرون على المبنى لنهب ما فيه من أجهزة كهربائية، وحال خروجهم من المبنى يتحولون إلى باعة لطفاء يساومون الزبائن:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

"بكم تبيع هذا التلفزيون".

"خذه بـ 100ألف دينار. إنك لن تجد أرخص من هذا السعر في كل بغداد".

"ما رأيك بـ 50ألف".

"لا، هذا ما يناسبني".

ووسط تلك الفوضى المجنونة سيصيح أحد الباعة اللصوص على زملائه: "من عثر على الريموت كونترول لهذا التلفزيون؟".

بعد أكثر من ثمانية أشهر من انتهاء الحرب ما زال المرء قادراً على مشاهدة بعض "الحواسم"معروضة للبيع في الشوارع: تلك القضبان والحافات والأشياش الحديدية المستخدمة في نصب النوافذ. وأحيانا تشاهد أشخاصاً بملامح مريبة يسوقون سيارات مرسيدس. سيقول مرافقي آنذاك عند رؤيته أحدهم: "انظر.. هذا من الحواسم".

في هذا الفيض من القصص هناك حكايات تكشف إشكالاً عميقاً بين روح التعاون والأمانة التي تجمع الناس بعضهم ببعض وبين روح النهب للقطاع العام الذي يظل غريباً عنهم: يحكي آخر يقيم في مدينة صدام (التي بدّل سكانها اسمها إلى مدينة الصدر)عن أحد جيرانه الذي جاء محملاً بخمسة كومبيوترات سرقها من الجامعة التكنولوجية بواسطة عربة يجرها حمار. وبعد وصوله إلى بيته أعطى الحوذي كومبيوتراً واحداً أجرة للنقل. يقول هذا الصديق إنه سأل جاره عن سبب إعطائه هذه الأجرة السخية فكان جواب الآخر: هناك من أعطى حوذياً مليون دينار أجرة لنقله بعض الأشياء (الحواسم).

منشورات «ألف باء AlfYaa»

خَرَط السوق: انهيار قيمة الدولار وما يؤدي إليه من خسائر كبيرة للبعض ومكاسب كبيرة لآخرين وخلق وضع مالي وتجاري مهزوز للسوق، ويعود هذا التعبير إلى ما جرى سنة 1996عشية موافقة العراق على مذكرة التفاهم التي آلت إلى اتفاقية النفط مقابل النفط بين العراق والأمم المتحدة. إذ أغرق (كما يشاع) عدي ابن الرئيس السابق السوق بالدولارات مما أدى إلى هبوط قيمته من 3000دينار عراقي للدولار الواحد إلى 450دينار ثم عاد فاشترى الدولارات بثمن بخس من السوق. وأدى ذلك إلى خسائر الكثير من التجار مما دفع بعضهم إلى الانتحار و أصيب بعضهم بجلطات قلبية أودماغية. ويُستعمل التعبير اليوم كلما وقع اهتزاز في السوق إشارة إلى ظهور أزمة في السوق.

نَقَري: (القاف يلفظ على الطريقة المصرية في لفظ الجيم): هو لص ينفذ عملية السرقة بخفة شديدة وإتقان عال. وقد يستخدم التهديد أو الحيلة للوصول إلى هدفه بدون أن يلجأ إلى العنف. ضمن هذه المجموعة ينتمي النشالون ومختطفو السلع لحظة إغفال أصحابها عنها.

سْويتش(switch): الشخص المصاب بمرض نفسي أو عقلي نتيجة للظروف التي مر بها. وهو يطلق بالدرجة الأولى على الذين يمكن مشاهدتهم اليوم في شوارع بغداد وهم يتحدثون مع أنفسهم بصوت عال. هناك أسباب كثيرة وراء الإصابة أهمها ما جلبته الحرب العراقية الإيرانية من صدمات على الكثير من الأفراد الذين فقدوا أحباءهم أو عاد الأخيرون إليهم بدون سيقان أو أذرع أو بسبب الرعب الذي عاشته عوائل ظلت تخفي أبناءها الهاربين من الجيش أو لأسباب سياسية وما تركه ذلك العبء على عقول بعض أفرادها ونفوسهم. كذلك

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كانت لفترة الحصار آثار نفسية مدمرة على بعض أرباب الأسر الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن توفير الحد الأدنى من الطعام لأبنائهم، ثم كانت الحربين الأخيرتين وما تركته من تأثير مباشر على قطاعات واسعة من المدنيين لما تضمنته من قصف مهول شمل كل أنواع القنابل الضخمة الموجودة في الترسانة الحربية الأميركية. في حالات كثيرة كان الموتى يسكنون بالقرب من الأحياء إذ ظلت جثثهم منتشرة على الأرصفة لفترة طويلة مثلما جرى في الحرب الأخيرة.

قفّاص: (وجمعها قفّاصة) وهي من فعل قفّص ومصدرها تقفيص، والقفاص هو محتال يقترب فعله من فعل الساحر القادر على خداع الناس في لمح البصر. وجاءت التسمية أولا لتصف أولئك الأفراد الذين يتوسطون لبيع سيارة أو بيت أو أي شيء آخر ويأخذون العمولة من الطرفين بدون أن يعرف الباعة والمشترون بعضهم البعض. حالما يسمع القفاص بأن بيتاً معروضاً للبيع سيذهب إلى صاحبه ليتظاهر بأنه يريد شراءه، لكنه في الوقت نفسه يتحرك ليجد مشترياً، ومن خلال الفسحة التي تتوفر له سيتمكن من كسب مبلغ ما ثم يختفي من الساحة تماماً.

لكن هذه العبارة اتسعت لاحقا مع اتساع وسائل الغش خلال سنوات فرض العقوبات الدولية. هناك مجال آخر برزت فيه مهارات القفاصين وهذا يتمثل بتصريف النقود، خصوصا تصريف الدولار. فأن تذهب إلى أحد الصرافين المزعومين لتبدل ورقة 100دولار بدنانير عراقية ستجده حاملاً في يده صفاً عاليا من الأوراق النقدية وحينما تعطيه ورقتك سيضعها فوق "ضبة"النقود. سيعطيك سعراً منخفضاً وحينما تعبر عن احتجاجك سيلتفت إلى مجموعة من "القفاصين"المتواطئين

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ليسألهم عن سعر الدولار فيؤكدون السعر المنخفض الذي عرضه عليك. في تلك اللحظة يكون الصراف الكاذب قد قلب صف النقود، وحينما تعبّر عن غضبك منه وتطالب بورقتك ستتسلم بدلا منها ورقة مزيفة (شاعت في منتصف التسعينات ورقة المائة دولار الإسرائيلية المزيفة).

أنا التقيت بقفاص متوسط المهارة حينما ذهبتُ إلى محل للتصوير في الباب الشرقي لتسلم فيلم بعد تحميضه وطبعه. وبعد أن أعطيتُ أحد الواقفين وراء الكاونتر ورقة 25ألف دينار أرجع لي ذلك الشخص الصور لكنه ظل يتظاهر بأنه في حالة سهو. وحينما طلبتُ منه أن يرد لي الباقي كانت الورقة بين أصابع يده اليمنى ويبدو أنه كان ينتظر مغادرتي ناسياً ما تبقى لي في ذمته.

مُكَبسِل: من كلمة كبسول. وهي تصف حالة الشخص بعد أخذه للمخدرات الكيميائية التي تباع في هيئة كبسولات والتي ساد انتشارها خلال عقد التسعينات. في البدء تفشى استعمالها بين السجناء الذين كانوا يعيشون في ظروف مجردة من أي بصمة انسانية، حيث كان الحراس يوفرونها لهم مقابل أجور عالية يدفعها الأهل لأبنائهم السجناء. حالياً يمكن للمرء أن يشاهد أفراداً جالسين في مقهى وغارقين في حالة من "الانسطال"المطلق فيشير البعض إلى أي منهم: "إنه مُكَبْسِل."

وطنية: ليس لهذا التعبير علاقة بالوطنية التي وردت في كتب التاريخ والواجبات المدرسية بل هو رمز للكهرباء الطبيعية التي تنتجها محطات الطاقة الكهربائية. فحينما يقول الابن لأمه: "جاءت الوطنية"فهو يعني رجعت الكهرباء إلى البيت.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مولّدة: هذا التعبير لا علاقة له بالمرأة المولِّدة بل هو للجهاز الذي أصبح أساسياً للحياة العامة لتوليد الكهرباء. وفي المناطق الشعبية هناك مولدات تغطي الحاجة لعدد من البيوت وتدفع كل أسرة اشتراكاً متواضعاً مقابل ذلك، أما بالنسبة لأحياء الطبقة المتوسطة فلكل بيت مولدته الخاصة التي يظل ضجيجها يترجّع صداه في الرأس حتى عودة "الوطنية". وعادة يتنقل الكثير من الناس خلال كل ساعات اليوم بين "الوطنية"و"المولِّدة"بدون أي مظاهر انزعاج أو غضب.

بازوكا: لا علاقة لها بقذائف البازوكا بل هي مصباح كبير يتغذى بالشحن أثناء وجود "الوطنية"ثم يولع بعد انقطاع الكهرباء.

عاكسة: خزن الكهرباء بواسطة البطاريات ثم عكسه على بعض المصابيح الخاصة.

لالة: الفانوس الذي أصبح مستخدما في بعض الأوقات جنباً إلى جنب مع مصباح اليد.

طاقّ(من فعل طقّ أي انفجر): وهو الشخص الذي كسب من "الحواسم"إلى درجة الإشباع. وأصبح هذا التعبير يستخدم اليوم لوصف أولئك الذين أثروا بطرق غير شرعية وبفترة قصيرة بحيث أنهم وصلوا إلى حد التخمة.

توريط: منذ بداية الثمانينات شاع أسلوب توريط الناس بأعمال إجرامية لجعلهم مخلصين تماما لحزب البعث الحاكم. والتوريط غالباً ما يحدث تحت التهديد. ينقل اللواء المهندس المتقاعد أبو أنمار (أحد النشطاء الديمقراطيين الذين التقيتهم في بغداد وأعجبتني كثيراً رؤيته وغنى طروحاته) تفاصيل ما جرى بعد أن وزِّعت استمارات على أعضاء شعب وفروع

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حزب البعث (وهم قياديون متقدمون) تستفسر منهم إن كانوا يرغبون في الالتحاق بـ "قادسية صدام" (الحرب العراقية الإيرانية). بادر أغلبهم بملئها بينما تجاهلها عدد صغير منهم خصوصاً أولئك العسكريين الذين كانوا في الأساس يشاركون في الحرب. بعد أيام قليلة طلب من أولئك الذين لم يملأوا الاستمارات الحضور إلى قاعة معينة وفي وقت معين. وهناك ظهر الرئيس السابق ليخبرهم أنه مستاء كثيراً من تصرفهم. وبعد انصرافه أجبِروا على البقاء حتى قدوم مسؤول آخر ليقرأ عليهم الحكم الذي أصدره الرئيس ضدهم: لقد تقرر تنفيذ حكم الإعدام بكم...آنذاك ساد صمت مطبق بين الحاضرين بدا كأنه أزلي. فجأة انطلق ذلك المسؤول بقراءة ما بيده ثانية: لكن الرئيس قرر في حالة عدم ظهور أي احتجاج من أي منكم فإنه يعفو عنكم شرط أن تنفذوا أي أمر يُطلب منكم. وبعد تنفسهم الصعداء بقليل جاءت حافلات كبيرة لتنقلهم إلى سجن الرضوانية المخصص للسجناء السياسيين، وهناك كان على كل فرد منهم أن يلتقط مسدساً موضوعاً على طاولة ويدخل إلى غرفة ليطلق رصاصة واحدة على رأس أحد السجناء المقيدين، ثم يخرج من الباب الآخر قاتلاً محترفاً. وهكذا تم توريطهم جميعاً. ولا بد أن صدور القرار وتنفيذه فوراً لم يعط أيا منهم الوقت الكافي لاتخاذ قرار آخر قد يدفع حياته ثمناً له مقابل أن يحافظ على إنسانيته.

شملت سياسة التوريط الكثير من مظاهر الحياة وابتدأت منذ لحظة وصول صدام حسين إلى الرئاسة. إذ نُفذ أول عمل توريطي حينما أراد تصفية رفاقه القياديين الذين كانوا متحمسين لفكرة التقارب مع سوريا أو أنهم غير راضين على الطريقة الفردية التي أزاح وفقها الرئيس الأسبق أحمد حسن

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

البكر، آنذاك تم إشراك الكثير من القياديين الصغار والكبار لتنفيذ حكم الإعدام بما يقرب من 500فرد من رفاقهم، وبذلك ضمن الرئيس الجديد تورط أعضاء حزبه في القتل وضمن ولاءهم الأبدي له.

تَستُّر: هذا التعبير يستعمَل كتعبير عن "الجريمة"التي يرتكبها الفرد في حالة عدم إخبار السلطات عن أي شخص يسيء للرئيس أو النظام السابقين. فمع جهود المؤسسات الأمنية لتوريط أكبر عدد ممكن من الناس في نشاطاتها، كان العاملون في قطاع الخدمات أكثر من يتم استدعاؤهم وإجبارهم على البدء بتزويدها بمعلومات عن زبائنهم. وإلى هؤلاء ينتمي الحلاقون والسواق ونادلو المقاهي والمطاعم وباعة الصحف وأصحاب أجهزة الاستنساخ وأمثالهم. وفي حالة إبلاغ أحد الأفراد عن شخص "معادٍ"للنظام بحضور واحد من عمال الخدمات فإن الأخير سيعاقب أيضا لأنه تستَّر على ذلك الشخص المعادي. هذا المبدأ ساد أيضا في فترة الحرب العراقية الإيرانية ، فأي فرد يتستر على شخص هارب من الجيش سيلقى عقوبة الإعدام نفسها التي سيلقاها الهارب نفسه. كذلك تمت إبادة عوائل بأكملها لتسترها على شخص ما ينتمي إلى حزب سياسي "معادٍ"عن طريق إخفائه في بيوتها، بغض النظر عن طبيعة القرابة التي تجمعه بها.

تسود حكاية طريفة في بغداد تبدو كأنها قطعة سريالية كتبها سلفادور دالي وأخرجها بونويل: شاهد أحد أهالي بغداد حلما ظهر فيه أنه رئيس للجمهورية وأنه عيّن صديقاً له وزيرا للدفاع. وحينما سرد ذلك الحلم في مقهى الحي نقل أحدهم الحكاية إلى الجهات الأمنية المسؤولة. وبعد فترة من التعذيب له ولصديقه أحيلا إلى محكمة فصدرت العقوبة ضدهما: حُكم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

على الحالم بالسجن لمدة خمس سنوات لتمنيه أن يصبح رئيسا للجمهورية أما صديقه فكان الحكم ضده بالسجن ثلاث سنوات للتستر على حلم صديقه.

تقرير: سادت هذه المفردة بشكل شائع منذ بداية الثمانينات وهي لا تشير إلى التقرير الصحافي أو التقرير الذي يكتبه الخبراء بعد دراستهم لهذه الظاهرة العلمية أو تلك بل هي تشير فقط إلى تلك الرسائل التي يكتبها أي منتم إلى حزب البعث مهما تكن درجته الحزبية، بل كلما كان موقعه الحزبي متواضعا تزايد الضغط عليه لكتابة تقارير ضد الآخرين ليؤكد إخلاصه للنظام ورئيسه. وخلال الحرب العراقية الإيرانية ازداد حجم التقارير المكتوبة تحت وطأة الخوف من إرسال الأفراد إلى خطوط الجبهة الأمامية خصوصاً بعد بدء وصول أعداد كبيرة من القتلى المنقولين من ساحات القتال إلى المناطق الشعبية. ولتأخير إرسال هذا الشخص أو ذاك أسبوعاً آخر كان عليه أن يشي بشخص ما كي يكسب رضا المسؤولين الحزبيين عنه. كان الكثير من التقارير تُحَوَّل إلى الجهات الأمنية للنظر فيها، وفي حالات كثيرة تنتهي بإعدام من يُكتب ضدهم فيها للسرعة التي تنجَز فيها المحاكمات أو بسبب اعترافهم بارتكاب "الجرائم"التي تضمنتها تقارير "الرفاق"عنهم تخلصاً من التعذيب الذي يمرون به قبل أي حكم ضدهم.

هناك عدد كبير من التقارير كتبها أخوة ضد أخوتهم أو آباء ضد أبنائهم أو بالعكس. يحكي قريب لي كيف أنه شاهد ابنه الذي كان آنذاك في السادسة عشرة من عمره يبحث في جيوب سترته المعلقة على مشجب وحينما سأله تحت التهديد عمن طلب منه القيام بذلك كان جواب الابن: "مسؤول الخلية"، إذ طلب الأخير منه بناءً على طلب مسؤوله الأعلى أن يتحرى

منشورات «ألف باء AlfYaa»

فيما إذا كان الأب يتسلم نشرات معادية.

هناك تقديرات غير موثقة تشير إلى أن نسبة عدد المتورطين في كتابة تقارير أدت إلى إلحاق الأذى بالآخرين هي حوالي 20% من عدد السكان الراشدين في العراق. أي شخص واحد بين كل خمسة أشخاص.

حصار: ظلت هذه المفردة بالنسبة للمقيمين خارج العراق مفهوماً مجرداً لا يزيد عن كونه عتلة أدت "إلى تدمير البنية التحتية للمجتمع". وهو تعبير سياسي للعقوبات الدولية التي فرضها مجلس الأمن الدولي ضد العراق بعد غزو جيشه للكويت. أما بالنسبة لأغلبية العراقيين في الداخل فهي تعني السنوات التي مرت عليهم منذ عام 1991وحتى وقوع الحرب الأخيرة. مع ذلك، هم يميزون بين فترتين تقع الأولى منها بين عامي 91ونهاية 96أما الثانية فهي بعد بدء تطبيق قرار "النفط مقابل الغذاء"الذي لم يوافق الرئيس العراقي السابق عليه إلا بعد ما يقرب من مرور عامين على تقديمه أمام مجلس الأمن الدولي. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت معظم العوائل تتسلم ما يكفيها للبقاء على قيد الحياة. أما قبل ذلك أي في فترة الحصار الأولى حيث تصاعدت معدلات التضخم بشكل جنوني إلى الحد الذي جعل رواتب الموظفين الشهرية في أحسن الأحوال لا تسد تكاليف العيش لأكثر من عدة أيام. هنا بدأ الحصار الذي هو مفهوم مجرد لمن لم يعشه حقا يقضم "فعليا"الأولويات التي تقوم عليها حياة الأفراد والعوائل. فإذا كانت حربا الخليج الأولى والثانية بالنسبة للفرد صراعاً من أجل البقاء عن طريق إيجاد مئات الوسائل التي تساعده على تأخير إرساله إلى خطوط القتال الأمامية فإن حرب الحصار بين عامي 91و96هي صراع ضد عدو مجهول. أفضل صورة للحصار

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ظهرت حينما بدأ الناس ببيع الكنبات والأسرّة والكراسي في بيوتهم لضمان عيش أسرهم أياما إضافية ثم سياراتهم ثم منازلهم الكبيرة مقابل شراء منازل أصغر ثم بيع بلاطات السيراميك لأرضيات بيوتهم ثم أعمدة الحديد التي تسند جدران الغرف بعد هدها على يد عمال مختصين بهذا النوع من الأعمال ثم بيع حدائق بيوتهم والملابس والسجاجيد والتلفزيونات.

في هذه الفترة تنامت غريزة البقاء لدى الناس إلى حد متطرف وكسِر الحاجز الذي كان يقف بين الفرد والملكية العامة. فسرقة الأسلاك الكهربائية النحاسية وأنابيب المياه وغيرها جرت خلال تلك الفترة لمنح من يقوم بها فرصة البقاء أسبوعاً إضافياً. وفي هذه الفترة ازدادت معدلات الجريمة بشكل خارق للمألوف وعجت السجون باللصوص والمحتالين والقتلة.

من جانب آخر هناك قصص أخرى تحكي عن كيفية استغلال النظام الحصار لصالحه. تسود حكاية (أو إشاعة) عن موت مجموعة من الأطفال بطريقة غامضة في يوم واحد حين أخذهم آباؤهم لعلاجهم من أمراض عادية، وفي اليوم الثاني ظهر موكب من التوابيت الصغيرة أمام لجنة دولية كانت قد حضرت لتقصي آثار الحصار على الأطفال.

يحكي صديق عن طبيب كان يشارك في تدمير صناديق الأدوية التي تبعثها منظمات خيرية إلى العراق تحت إشراف قصي الابن الثاني للرئيس السابق. وحينما ترجاه ذلك الطبيب يوما لإبقاء صندوق من الأدوية لأهميته الخاصة للمرضى جاء جواب قصي: أبي يقول إنه إذا لم تُكنس جثث العراقيين من

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الشوارع فإن الحصار لن يُرفع عن العراق.

في فترة الحصار كانت رواتب الجنود لا تغطي تكاليف النقل كي يسافروا إلى معسكراتهم. ومع حاجة عوائلهم إلى الطعام اضطر البعض منهم إلى الهروب والقيام بأي عمل لإعالتها على الرغم من مخاطر وقوعهم بيد دوريات الانضباط العسكري وما كان يعنيه من قطع لآذانهم. تتردد حكاية عن طبيب رفض تنفيذ الأمر الصادر له بقطع صيوان أذن أحد الهاربين من الجيش قائلا: عملي هو لإنقاذ المرضى وتخفيف الآلام عنهم لا العكس. وكان الثمن حياته.

سلاّب: بعد سقوط النظام السابق وانهيار الأمن كليا في بغداد يوم 9أبريل الماضي ظهر قطاع الطرق في الشوارع البارزة مثل شارعي الرشيد والسعدون وراحوا يوقفون المارة لانتزاع ما يمتلكونه من نقود. هناك قصص كثيرة يرويها أهالي بغداد عن تلك الأيام التي أعقبت سقوط تمثال الرئيس الأسبق في ساحة الفردوس.

بعد أن فتش سلاّب أحد الأشخاص المطقَّمين ببذلة وربطة وحذاء لماع ولم يعثر في جيوبه على أي ورقة نقدية استاء كثيرا فصرخ في وجهه محتجاً: كل هذه الأناقة ولا تحمل شيئاً. إذا جئت مرة أخرى في هذا الطريق فسأعاقبك. بينما شعر سلاّب آخر بالشفقة لأحد ضحاياه فمنحه 5000دينار بعد أن فتشه ولم يجد لديه سوى 500 دينار فقط .

بوري: البوري في العامية العراقية هو أنبوب الماء المعدني. وحينما يقول أي شخص: ضربني زيد "بوري"فهو يعني أن زيداً قد وعده بشيء ما لكنه خذله ولم ينفذ وعده. وجاءت التسمية أولا من شيوع استخدام "البوري"في فترة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الحصار للتحايل على الزبائن عند بيع الخضار. فأن تشتري على سبيل المثال كيساً من الباذنجان بعد اطمئنانك أن حباته داخل الكيس القطني الشفاف سليمة تكتشف عند فتحه في البيت أن الحاصل الموجود وسط الكيس فاسد وليس هناك سوى بضع باذنجانات سليمة تحيط بأغلبية فاسدة. والطريقة التي يستخدمها بعض الباعة للغش هو وضع "بوري"متسع وسط الكيس ثم ملؤه بالباذنجان الفاسد. وبعد وضع حبات سليمة حوله يُسحَب البوري ويُغلَق الكيس. لذلك كان الناس يرددون في هذه الحالة أن الكيس مضروب "بوري". لكن هذا التعبير انتقل ليعني عدم الالتزام بالكلمة أو بالوعد. فحينما تتواعد مع صديق ولا يأتي حسب اتفاقكما فهو قد ضربك "بوري".

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

صدر للمؤلف

1. **"العبور إلى الضفة الأخرى"** (قصص)، عام 1992، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
2. **"أحلام الفيديو"** (قصص)، عام 1996، عن دار الجندي، دمشق ـ سوريا. . صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
3. **"رمية زهر"** (قصص)، عام 1999، عن دار المدى، دمشق ـ سوريا
4. **"خيانة الوصايا"** (ترجمة)، دراسات نقدية لميلان كونديرا، عام 2000، عن دار نينوى، دمشق ـ سوريا
5. **"مفكرة بغداد: يوميات العودة إلى مسقط الرأس"** (كتاب يوميات) ، عام 2004، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ــ لبنان. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025.
6. **"كوميديا الحب الإلهي"** (رواية)، عام 2008، عن دار المدى، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025
7. **"لعبة الأقنعة"** (قصص)، عام 2008، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
8. **"حين تغيرنا عتبات البيوت"** (مقالات)، عام 2021، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا
9. **"جاذبية الصفر WEIGHTLESSNESS"** (رواية)، عام 2023، عن دار دلمون الجديدة، دمشق ـ سوريا. صدرت النسخة الرقمية عن "ألف ياء alfyaa.net" 2025.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لؤي عبد الإله

- كاتب عراقي وُلد في 2كانون الثاني 1949في بغداد. قضى سنوات دراسته الابتدائية والإعدادية متنقلاً مع أسرته بين قضاء الحويجة في محافظة كركوك، ومنطقتي أبو غريب والزعفرانية الأولى الزراعيتين، وذلك بسبب تنقل والده عبدالاله أحمد محمد الذي كان يعمل موظفاً في وزارة الزراعة.
- أهم هذه المحطات كانت تلك التي قضاها في الزعفرانية الأولى، على أطراف بغداد، وهي منطقة تقع على ضفاف نهر دجلة وتحيط بها من كل جانب بساتين النخل والحمضيات. وفي ثانوية جسر ديالى أنهى دراسته الثانوية، وكان الوصول إليها يتطلب ركوب الباص من وسط بغداد إلى منطقة المدائن.
- وقد تشكلت له خلال سنته الإعدادية مجموعة صداقات قائمة على القراءة في مختلف المجالات، وتبادل الكتب والمقالات، وكان للأستاذ الراحل محمود الريفي دور كبير في توجيهه نحو الأدب والفلسفة خلال عامَي 1964-1965.
- بعد أن أنهى دراسته الجامعية وحصوله على بكالوريوس في الرياضيات من كلية العلوم / جامعة بغداد، خدم لعامٍ واحد في الجيش، ثم عُيّن مدرساً للرياضيات في ثانوية العطيفية حتى عام 1976، حيث سافر ضمن بعثة تعليمية

منشورات «ألف باء AlifBaa»

عراقية إلى الجزائر، وكان من المقرر أن يعود إلى العراق في عام 1980بعد انتهاء إعارته، لكنه قرر البقاء في الجزائر والعمل بموجب عقد شخصي كمدرس للرياضيات في معهد للمعلمين بمدينة وهران.

- نشر أول قصة قصيرة له في مجلة **الآداب اللبنانية** عام 1983تحمل عنوان **"طيور السنونو"**.
- انتقل **لؤي عبد الإله** إلى لندن عام 1985، حيث عمل في عدة مجالات منها التعليم والترجمة.
- ظل **لؤي عبد الإله** منذ وصوله إلى لندن عام 1985يعمل في مجالَي الترجمة وتدريس الرياضيات أولاً في معاهد مسائية مختلفة، ثم بدأ قبل حوالي عشرين سنة بتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها في معهد **سواس** و**جامعة ويستمنستر** وجامعة **أغا خان**.
- منذ أواخر الثمانينيات وحتى الآن، نُشرت له مقالات أدبية وفكرية وقصص قصيرة في عدد من الصحف العربية مثل **"الحيـاة"**، و**"الشـرق الأوسـط"**، و**"العـرب"**، و**"القـدس العربي"**، كما نُشرت أعماله في مجلات أدبية متعددة مثل **"الآداب"**اللبنانية، و**"الكرمل"**، و**"الناقد"** التي كان يصدرها رياض الريس في لندن.

منشورات «ألف باء AlfYaa»